الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

Ministère de l Enseignement Supérieur Et de la RechercheScientifique

Université de Ghardaïa — جـامعة غرداية

Faculté des sciences sociales et humaines — كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

Département de l'Histoire — قـسم التـاريـخ

دروس في مادة تاريخ

تاريخ تونس الحديث1

مُقدمة لطلبة السنة الاولى ماستر

في السداسي الاول

شعبة التكوين في:التاريخ

تخصص:تاريخ تاريخ المغرب العربي الحديث

إعداد الأستاذ:موسى تريعة

الموسم الجامعي 2021 /2022م

Scanné avec CamScanner

فهرس المحتويات:

فهرس المطبوعة

مقدمة المطبوعة

الدرس التمهيدي

الدرس الاول : الدولة الحفصية في تونس

عناصر الدرس

مقدمة

أصلهم ونسبهم

الظروف المساعدة على ظهور الحفصيين

دور أبي زكريا في تأسيس الدولة الحفصية

ملخص

مصادرومراجع الدرس

الدرس الثاني :التطورات التاريخية للدولة الحفصية

عناصر الدرس

مقدمة

1/ فترة حكم المستنصر

2/ فترة حكم الواثق

3/ فترة حكم المعتمد بالله

Scanné avec CamScanner

أسباب ضعف الدولة الحفصية

ملخص

مصادرومراجع الدرس

الدرس الثالث :التمردات والثورات الداخلية في تونس الحفصية

عناصر الدرس

مقدمة

1/ معارض وتمردات الأهالي للسلطان الحفصي

2/ تمرد الامير علي سنة 1542

ملخص

مصادرومراجع الدرس

الدرس الرابع : الإوضاع في الحوض الشرقي للمتوسط خلال القرن السادس عشر

عناصر الدرس

مقدمة

أولا: الاحتلال الاسباني لسواحل الحوض الشرقي للمتوسط

ثانيا: نشاط الاخوين عروج وخير الدين في بلاد المغرب

ملخص

مصادرومراجع الدرس

Scanné avec CamScanner

الدرس الخامس: تونس الحفصية من الإستقلال إلى التبعية

عناصر الدرس

مقدمة

تحالف الإخوة بربروس مع الدولة العثمانية

إلحاق تونس بالدولة العثمانية

1/ أسباب توجه خير الدين إلى تونس

2/ حملة خير الدين على تونس 1535

ملخص

مصادر ومراجع الدرس

الدرس السادس :حملة شرلكان على تونس

عناصر الدرس

مقدمة

4/ أسباب توجه شرلكان إلى تونس

5/ الإستعدادات للحملة :

Scanné avec CamScanner

1-5- الإستعدادات الإسبانية

2-5- الإستعدادات الإسلامية

3-5- انطلاق الحملة ومجرياتها :

1-3-5- انطلاق الحملة

2-3-5- استباحة الاسبان لتونس

3-3-5- دخول الاسبان لتونس

4-3-5-معاهدة الاستسلام ونتائجها

ملخص

مصادرومراجع الدرس

الدرس السابع : الحاق تونس بالدولة العثمانية

مقدمة

أولا : فترة حكم الباشوات (1574-1591)

ثانيا : حكم الدايات في تونس (1591-1640)

ملخص

مصادرومراجع الدرس

Scanné avec CamScanner

الدرس الثامن :فترة حكم الاسرة المرادية (1631-1702)

مقدمة

أهم المحطات التاريخية للاسرة المردادية في تونس

ملخص

مصادرومراجع الدرس

الدرس التاسع : عهد الاسرة الحسينية في تونس (1702-1956)

مقدمة

نظام الحكم الحسيني في تونس

سياسة حمودة باشا الخارجية

ملخص

مصادرومراجع الدرس

الدرس العاشر :عهد الإصلاحات في تونس خلال القرن التاسع عشر

مقدمة

إصلاحات أحمد باشا

إصلاحات محمد باي

Scanné avec CamScanner

إصلاحات محمد الصادق باي

ملخص

مصادرومراجع الدرس

خاتمة المطبوعة

قائمة المصادروالمراجع المعتمدة في المطبوعة:

Scanné avec CamScanner

مقدمة المطبوعة :

أهمية المادة ومكانتها في التخصص :

تعتبر مادة تونس الحديثة من المواد الأساسية في تخصص التاريخ والموجهة لطلبة السنة الأولى ماستر ، فهي مادة تندرج ضمن مواد تخصص المغرب العربي الحديث ، وتمثل معلم مهم من معالم كفاح الشعب التونسي طلية الفترة الممتدة من بداية الدخول العثماني إلى غاية الاعلان استقلال البلاد سنة 1956، ومن خلال المادة المتوفرة يمكنه التعرف على أهم التطورات التاريخية التي عرفتها تونس طلية الفترة الحديثة.

وتكمن أهمية المادة في تطرقها ليس لكل حيثيات الموضوع ذلك أن هذه المادة تتميز بقلة مصادرها من المادة الارشفية وغيرها ، ولهذا حاولنا قدر الامكان الامام بالجوانب الاساسية لهذه المادة ،وأن نفتح المجال أمام دراسات مستقبلية تخص هذه المادة وغيرها ، وخاصة أنظمة الحكم في تونس خلال العهد العثماني كدراسة مقارنة بين الفترات الثلاث والتعرف على أوجه التشابه والاختلاف بينها.

الهدف من تدريس المادة :

تهدف هذه المجموعة من الدروس ألى التعمق في تاريخ تونس في الفترة الحديثة ،والاهتمام بهذا التخصص يندرج في إطار إعادة كتابة تاريخ المغرب العربي الحديث عامة وتاريخ تونس ضمن هذا الاطار ، حتى نعيد الاهتمام بهذا التخصص ذي الأهمية البارزة في الهوية والمقومات الشخصية ، كما يمكننا من خلال هذه الدروس التعرف على أنظمة الحكم التي عرفتها تونس خلال الفترة العثمانية ،التعرف على العلاقات التي كانت تربط تونس بالايالات العثمانية الاخرى كالجزائر وطرابلس الغرب وكذا عن علاقة تونس بالمغرب الاقصى خلال الفترة السعدية والعلوية ،ويمكننا من التعرف أيضا على طبيعة مواجهة تونس للحملات الصليبية خاصة خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر بعد أن أصبح الضعف والوهن يدب في أوساط السلطنة الحفصية التي بدأت في التراجع خلال القرن الخامس عشر ميلادي .

أما الاشكالية اليت سنحاول الاجابة عنها من خلال هذه الدروس وهي التعرف على طبيعة الحكم العثماني في تونس ، هل كان حكما مباشرا أم غير مباشر ؟ وكيف كانت علاقة تونس بالباب العالي ؟ ، أما الاشكاليات الثانوية فهي : ماهي الاوضاع التي ميزت تونس خلال القرن الخامس عشر ؟ أي قبيل انضمام تونس للايالة العثمانية ؟كيف كانت بدايات الوجود العثماني في تونس ؟ وموقف الاسبان من هذا التواجد

Scanné avec CamScanner

العثماني في الحوض الغربي للمتوسط؟ وكانت رد فعل التونسيين من النفوذ الجزائري طيلة الحكم العثماني لتونس ؟

محتواها عامة :

تتضمن مادة تونس الحديثة مجموعة من المحاور والفصول المتتابعة في تناولها للوقائع والاحداث ،وهي تهدف بشكل عام إلى التعرف عن أهم المحطات التاريخية لتونس في الفترة مابين 1574 الى 1956 ، وهي الفترة العثمانية لتونس ، وذلك بدراسة الاوضاع التي ميزت تونس قبيل انضمامها للدولة العثمانية وكذا التعرف على طبيعة الحكم العثماني في تونس ، إضافة الى دراسة أهم الاوضاع التي ميزت تونس قبيل فرض الحماية الفرنسية سنة 1881 ، ونسعى من خلال هذه المادة إلى تكوين طلبة يكتسبون مؤهلات وقدرات علمية وثقافية تخص تونس في الفترة العثمانية ،في جوانبه السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والإستراتيجية،وذلك من خلال التعمق والتطرق إلى موضوعات دقيقة تمس المجتمع التونسي وتطوره خلال الفترة الحديثة .

نوعية المصادروالمراجع:

حاولنا قدر المستطاع الوصول إلى أهم المصادر والمراجع التي تخص تونس فترة الحديثة ، ولاحظنا بأنها تتميز بنقصها من جهة ، ومن جهة اخرى وجدنا بأن هناك اشارات سطحية ليست معمقة عن بعض الجوانب خاصة مراحل الحكم العثماني لتونس خاصة مرحلة الباشوات والدايات ،وعلى الرغم من هذه الصعوبات الا أن هناك بعض المصادر العربية المكتوبة وأيضا الاجنبية التي تخص الموضوع ومنها كتابات أحمد ابن أبي الضياف وكتاب الفونيو روسو بعنوان الحوليات التونسية ، هذه المصادر والمراجع ساعدتنا في اعطاء ولو لمحة عن تونس كإيالة عثمانية ، ونحاول في المطبوعة القادمة إن شاء الله التوسع أكثر في الموضوع ليشمل علاقات تونس بالايالات العثمانية الاخرى وأيضا علاقة تونس مع دول غرب أوربا .

الصعوبات المحتملة في اكتسابها :

من الصعوبات التي يواجهها الطلبة من البداية في هذه المادة هي عدم تطرقهم لهذه المادة في مرحلة ليسانس ولو كلمحة عن تونس في الفترة الحفصية لكي يسهل عليهم دراسة هذه المادة في مرحلة الماستر ،اضافة إلى نقص المدة المخصصة لهذه المادة ، كما لاننسى نقص المصادر المعربة لهذه المادة مما يحول الطالب دون دراسة كل جوانب المادة .

Scanné avec CamScanner

الدرس التمهيدي :

تهدف هذه المجموعة من الدروس الى تسليط الضوء على مرحلة هامة من تاريخ تونس خلال الفترة الحديثة ، وقد بدأنا هذه الدروس بالتعرف على الاوضاع التي ميزت تونس قبيل التواجد العثماني في المنطقة ، وكذا التعرف على طبيعة الصراع الاسباني العثماني ، وتطرقنا إلى التحالف العثماني الجزائري والتصدي للتحالف الاسباني الحفصي ، كل هذه الاحداث كانت مميزة للقرن السادس عشر ، الذي يعد فترة زمنية مهمة ليس لتونس فقط وإنما للمنطقة ككل ،بإعتبارها شهدت بدايات توجه الدولة العثمانية للاهتمام بالجهة الغربية ، مما جعل المنطقة تعرف تحولا جذريا ، ليظهر بعد ذلك صراعا آخر أخذ صبغة دينية بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي ،وقد حولنا الالمام بكل جوانب المادة ولو بإشارات لكي يتمكن الطالب من أخذ صورة عن تونس في الفترة الحديثة قبل دراسة المرحلة المعاصرة.

التعريف بالمادة ومحتوياتها :

-المستوى المستهدف السنة الاولى ماستر تاريخ المغرب العربي الحديث

-السداسي: الأول

-اسم الوحدة: الأساسية

-اسم المادة: تاريخ تونس الحديث1

-الرصيد:04 ،المعامل:02

-الحجم الساعي الاسبوعي للمادة ساعة ونصف للمحاضرة وساعة ونصف في الاعمال الموجهة ، أما في السداسي 45 ساعة .

الاهداف المرجوة من تدريس المادة :

تهدف محاور المادة إلى تمكين الطالب من الاطلاع والتعرف بشكل موسع عن أهم المحطات التاريخية لتونس خلال الفترة العثمانية ، أين يتعرف الطالب أكثر على طبيعة نظام الحكم العثماني في تونس إلى غاية فترة الإصلاحات خلال النصف الاخير من القرن التسع عشر ، وهي الفترة التي بدأت فيها الدولة العثمانية تتخلى تدريجيا عن إيالاتها في الجهة الغربية من المتوسط ، ومن ثمة بدأت مرحلة جديدة في تاريخ تونس والتي تبدأ من اعلان الحماية الفرنسية سنة 1881.

Scanné avec CamScanner

المصادر والمراجع الاساسية للمادة :

المصادر:

* السراج: محمد بن محمد الاندلسي(ت 1149هـ/1736م)، الحلل السندسية في أخبار التونسية، ط1، تقديم وتحقيق محمد لحبيب الميلة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970.

* الزركشي (أبو عبدالله محمد بن إبراهيم ت 925هـ/1519م)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.

* ابن خلدون،(أبوزيد عبد الرحمان ت808هـ/1405م)، العبروديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربرومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، ضبط ومراجعة: خليل شحادة، سهيل زكار، ج6، ط2، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ، 2000م.

* ابن قنفذ(أبو العباس أحمد القسنطيني ت 810هـ/1407م)، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق: محمد الشاذلي، النيفر التركي، الدار التونسية للنشر، 1998م.

* التجاني (أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد ت 721هـ/1321م)، رحلة التجاني، تحقيق: حسن حسين عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس، 1958.

*أحمد بن أبي الضياف ، اتحاف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان ،ج5،الدار العربية للكتاب ، تونس ،

*محمود مقديش :نزهة الانظار في عجائب التواريخ والاخبار، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ،ط1،دار الغرب الاسلامي ،بيروت ، مج2،1988

.

المراجع :

*يوسف عابد، العلاقات بين الدولتين الحفصية والمملوكية(648هـ/1250م-694هـ/1269م)، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة،1995م.

Scanné avec CamScanner

*عاشور بوشامة، علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة.

*محمد مبارك الميلي، تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، دار الغرب الإسلامي، لبنان ،د ت،

*محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ماقبل التاريخ إلى الاحتلال ، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة ، ط3، دارسراس للنشر، تونس ، 1993 .1

Scanné avec CamScanner

الدرس الاول : الدولة الحفصية في تونس

تقديم:

يعالج الدرس الأول مرحلة هامة من تاريخ الدولة الحفصية التي برزت بعد سقوط الدولة الموحدية ، فكانت الأسرة الحفصية أهم الأسر التي ثبتت وجدها في المغرب الأدنى خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وسنحاول في هذا الدرس التعرف على أهم الظروف المساعدة على ظهور هذه الدولة وأهم التطورات التي عرفتها إلى غاية سقوطها .

1-أصلهم ونسبهم:

تعود الأسرة الحفصية في نسبها إلى الشيخ أبي حفص عمر أحد أصحاب المهدي بن تومرت العشرة الذين يُطلق عليهم اسم الجماعة، وتذكر المصادر بأنّ لقب أبي حفص عمر قد أطلقه عليه المهدي بن تومرت وأيضاً لُقب بالمبارك.

وأصل أبي حفص بن عمر يعود إلى إحدى قبائل هنتانة المحمودية، ويذكر إبن خلدون بأنّ وفاة أبي حفص عمر قد كانت في 571هـ/1175م.[1]

[1] عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح صلاح الدين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت ، لبنان ، ص ص 191.

Scanné avec CamScanner

2- الظروف المساعدة على ظهور الحفصيين:

تعد ثورة ابن غانية مظهراً من مظاهر الصراع بين بقايا المرابطين والموحدين في المنطقة، إذ بضعف الموحدين وانشغالهم بالأوضاع في الأندلس الجريحة[1] قاموا بالغزو و سعى ابن غانية إلى بناء أسطول كبير من أجل غزو بجاية، فجمع عشرون قطعة بحرية ومائة فارس وأربعة ألاف رجل وتمكن من السيطرة على بجاية سنة 580هـ /1184م، كما استولى بنو غانية على بجاية وبدأوا في التوسع غرباً فضموا مدينة الجزائر وملیانة وقلعة بني حماد وفشلوا في ضم قسنطينة على الرغم من الحصار الذي فرضه علي بن غانية.[2]

ولمّا وصلت الأخبار للخليفة الموحدي يعقوب المنصور مما فعله بنوغانية جهز حملة عسكرية برية وبحرية كبيرة اتجه بها نحو تونس، وعهد لابن عمه أبي زيد بن أبي حفص قيادة الجيش البري ولمحمد بن أبي إسحاق جامع الجيش البحري، واستطاع الجيش الموحدي من استرجاع عدة مناطق منّها مدينة الجزائر وبجاية وفك الحصار عن قسنطينة،[3] ونظراً لهذه الهزائم اتجه علي بن غانية نحو الصحراء، ثمّ تواجه الطرفان من جديد في سنة 583هـ إذ بعث لهم يعقوب المنصور حملة عسكرية إلى قفصة انهزم فيها الموحدون ليخرج إليهم المنصور بنفسه سنة

---

[1] عفيفي محمود إبراهيم، بنوغانية في بلاد المغرب، دار الثقافة، القاهرة، مصر، 1986، ص05.

[2] محمد العروسي المطوي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1986م، ص21.

[3] محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 24.

Scanné avec CamScanner

583هـ وأخذ الثأر للهزيمة واسترجع قابس وقفصة وعيّن على إفريقية والياً جديداً هو أبوزيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن سنة 584هـ /1188م.[1]

ولمّا توفي المنصور اعتلى الناصر لدين الله سُدة الحكم سنة 595هـ، وواصل سياسة سابقه في القضاء على ثورة بني غانية، فجهز حملتين برية بقيادة أبي سعيد عثمان بن أبي حفص وحملة بحرية بقيادة أبو علاء إدريس بن يوسف، وتمكن من السيطرة على جزيرتي ميروقة ومنروقة سنة595هـ أماّ جزيرة يابسة فقد ضمت سنة 583هـ /1187م.[2]

ثم عاد يحي بن غانية وجهز حملته من جديد إذ تمكن من السيطرة على المهدية وطرابلس وقابس وصفاقس وكل مدن البحرية بما فيها القيروان وتبسة وبونة ثم على تونس سنة 600هـ /1203م، وقد تمكنت جيوش الناصر من استرجاع عدة مدن وملاحقة يحي بن غانية إلى القيروان.[3] غير أنّ جيوش الناصر بقيادة أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص تعقبت خطواته والتقى الجيشان قرب قفصة، ودارت بينها معركة انهزم فيها بن غانية الذي فرّ إلى الصحراء، ثم أخذ الناصر في استعادت المدن التي وقعت في قبضة يحي بن غانية كالمهدية وتونس التي ولى عليها محمد بن يعمور.[4]

---

[1] الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية الج ، الجزائر، 1983م، ص 273.

[2] أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ، المغرب 1972م، ص 232.

[3] أبو عبدالله محمد التجاني، رحلة التجاني ،تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، المطبعة الرسمية ،تونس ، 1958 ص ص 354-357.

[4] عبد الرحمان بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبرفي ايام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر (1336-1406) ، ج6، ط3،دار الكتب العلمية ،بيروت ،2006، ص 572.

Scanné avec CamScanner

ثم تولى الشيخ أبو محمد عبد الواحد ولاية إفريقية سنة 603هـ /1206م. الذي وطد أركان البلاد وأسس لنظم جديدة وأصلح أمور الرعية واستمر الشيخ عبد الواحد في ولاية إفريقية إلى أن توفي سنة 618هـ /1221م بمدينة تونس.[1]

وعلى إثر وفاة الشيخ عبد الواحد انقسم الموحدون إلى قسمين قسم اختار ابنه الشيخ أبي زيد عبد الرحمان والفرقة الأخرى اختارت إبن أخيه إبراهيم بن إسماعيل بن الشيخ أبي حفص، غير أنّ الأمر استقر لابنه أبي زيد الذي لم تدم ولايته إلاّ ثلاثة أشهر، وقد كسب أبي زيد أثناء ولايته الكثير من المناصرين نظراً لسياسته الرشيدة التي عرف بها، إذ قضى على الاضطرابات والمشاكل، غير أنّ المستنصر الموحدي قام بعزله خوفاً من أن يستقلوا أبناء عبد الواحد بإفريقية ويتوارثونها أباً عن جد، لذلك قام بعزله وتعيين أبي العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن على إفريقية.[2]

ولمّا وصل أبو العلاء إدريس إلى تونس سنة 618هـ /1221م تجددت في عهده حركة بنو غانية،[3] فتحرك إليهم وقام بطردهم نحو الصحراء، ولمّا توفي أبو علاء خلفه ابنه أبوزيد بن أبي علاء الذي تضرر منه الناس وكرهوا سياسته و قاموا للشكاية به إلى الخليفة الجديد العادل الموحدي الذي رأى بأنّ الأمور في إفريقية لا يقدر عليها إلاّ أبناء عبد الواحد بن عمر، فعهد ولاية إفريقية إلى أبي محمد عبدالله بن الشيخ عبد الواحد الحفصي سنة 623هـ/ 1225م،[4]

---

[1] يوسف عابد، العلاقات بين الدولتين الحفصية والمملوكية(648هـ/1250م-694هـ/1269م)، رسالة ماجستير ، جامعة قسنطينة،1995م، ص 14.

[2] عبد الرحمان بن خلدون، العبر...، ج6، ص 300.

[3] عبد الرحمان بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج6، ص 300.

[4] الزركشي، : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ص 14.

Scanné avec CamScanner

ويظهر هنا مدى تفطن الخليفة العادل للدور الذي لعبته الأسرة الحفصية في القضاء على حركة بنو غانية من جهة ودورها في نشر الأمن والاستقرار في المنطقة وخاصة وقوف الأهالي إلى جانبهم وارتياحهم لسياستهم.

ولما وصل أبو محمد عبد الله الحفصي إلى إفريقية أخذ في إحداث تغييرات في نظام البلاد فقام بتعيين إخوته في مناصب مهمة، فولّى اخاه زكريا يحيى قابس والحامة، وأخيه أبا إبراهيم بلاد قسنطينة، كما توجه بجيشه نحو بنوغانية وحرر كل المناطق التي دخلوها كبجاية ودلس ومتيجة وملیانة وحتى مدينة الجزائر، ثمّ واصل أبو محمد عبدالله تتبع بنوغانية لكي يستخلص كل المناطق التي استحوذوا عليها، وهاجم القبائل التي تدعمهم حتى سجلماسة، فاستطاع أبو محمد فرض سلطته في البلاد وخاصة كسر شوكة بنوغانية في البلاد وتطهير البلاد من أعمالهم وفسادهم.[1]

غير أنّه بعد مقتل الخليفة العادل الموحدي سنة 624هـ /1226م بدأت الأمور في الاضطراب بمراكش.

خلفه يحي المعتصم غير أنّ هذا الأخير لم يستطيع البقاء على رأس الولاية، لأن والي إشبيلية أبا العلاء الموحدي تحرك نحو مراكش واستحوذ على السلطة وسمى نفسه المأمون، ثمّ بعث هذا الأخير لأبي محمد الحفصي والي إفريقية يطلب منه الولاء، غير أنّه رفض البيعة له، ليتصل المأمون بأخيه أبي زكريا والي مدينة قابس يطالبه بالبيعة مقابل جعله على رأس ولاية إفريقية، فقبل أبي زكريا بهذا العرض وأعلن البيعة للخليفة الجديد المأمون، ولمّا علم أخيه أبي

[1] عبد الرحمان بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج6، ص 303.

Scanné avec CamScanner

محمد الحفصي بتأييد أخيه أبي زكريا للخليفة المأمون جهز جيشه وخرج من تونس لمواجهته، غير أنّ شيوخ الموحدين رفضوا تدعيمه للوقوف في وجه أخيه، فقبضوا عليه وبايعوا أخاه أبا زكريا وأجبروه على التخلي عن المطالبة بالولاية.[1]

3-دور أبي زكريا في تأسيس الدولة الحفصية:

بايع شيوخ وأعيان القيروان أبو زكريا البيعة الأولى(البيعة الخاصة)، وفي سنة 625هـ/1227م بويع البيعة العامة في مدينة تونس، واستمر على هذا الحال إلى أن بدأ يبحث عن الاستقلال خاصة، وهذا ما تمكن منه سنة 627هـ/1229م وتلقب بالأمير، ولعل الحادثة التي وقعت له مع المأمون الموحدي الذي بعد أن بويع في الأندلس، أقدم الموحدون على نكث بيعته انتقم منهم بشدة بعد أن استولى على العرش من جديد، فقتل من شيوخ الموحدين عدداً كبيراً خاصةً في قبيلة هنتانة و تيمنال، مما زاد أكثر في نقمة وغضب أبي زكريا اقدام المأمون على إلغاء الدعوة الموحدية واسقاط اسم المهدي محمد بن تومرت من السكة والخطبة، عندما أعلن أبي زكريا عدم الولاء له وأعلن انفصاله التام عن الدولة الموحدية.[2]

وبعد أن أعلن انفصاله عن الدولة الموحدية شرع أبي زكريا في تطبيق سياستة واعادة ترتيب دولته من جديد خاصةً مسألة الحدود وعلاقاته من جيرانه، إذ أخذ في التفكير في توسيع مجاله الترابي، فبدأ سنة 826هـ/1228م بحصار قسنطينة وتمّ له السيطرة عليها بعد

---

[1] عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ج6،، ص 306.

[2] عبد الرحمان بن خلدون، ج6، ص 335.

Scanné avec CamScanner

استسلام أهاليها، ثمّ أحكم سيطرته على بجاية،[1] كما وجه أنظاره نحو ابن غانية الذي كان يُشكل خطراً على المنطقة واستقرارها، فتتبع أثره وهزمه في عدة مواجهات منها طرابلس والزاب، وبوفاة ابن غانية سنة 631هـ/1234م انتهت هذه الحركة التي زعزعت كيان الموحدين لعدة قرون.

ونظراً لانتصارات التي حققها زكريا ولسياسته الحكيمة، أمر هذا الأخير بأن تقام الخطبة باسمه وأن يُذكر اسمه في الخطبة بعد اسم المهدي فبويع سنة 634هـ/1237م بيعةً تامةً شاملةً، ونفس الأمر في بلنسية ومرسية، ثمّ توجه أبي زكريا بجيش كبير نحو تلمسان فضمها لسلطته سنة 639هـ/1242م.[2] ثمّ خضعت بقية بلاد المغرب لطاعته، فبعث يطلب بالبيعة من أهالي طنجة وسبتة وسجلماسة وأهل الأندلس، كما اعترف بنو مرين بالسلطة الحفصية ونفس الأمر بالنسبة لسكان أهل مكناسة من بني مرين الذين دخلوا هم أيضاً في طاعة الحفصيين، وهكذا ما إن انتهت سنة 1246م حتى استطاع أبو زكريا في ضم عدة مناطق في حوزته وحكمه، تحت سلطة الدولة الحفصية الجديدة، ويرجع الكثير من قبول البيعة لأبي زكريا من طرف هذه المدن والأقاليم السياسية وكفاءة في التسيير وقدرته على نشر الأمن والاستقرار خاصةً بعد قضائه على حركة بن غانية.

---

[1] بن عذارة المراكشي، بيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب، تح: محمد بن تاويت وآخرون، قسم الموحدين، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1985م، ص ص293-294.

[2] الزركشي، تاريخ الدولتي، ص 29.

Scanné avec CamScanner

وقد سار أبو زكريا على نهج الموحدين في الجانب الديني ، أين حافظ على تعاليم النهدي ، ولم ينفر السكان من تلك التعاليم ، كما عمل على انشاء المساجد الكبيرة ومنها جامع القصبة[1] وصومعته التي نقش عليها سنه ، كما بنى عدة مدارس منها المدرسة الشماعية وبنى سوق العطارين .

ملخص :

نخلص الى القول بأن نهاية الموحدين عجلت بتقسيم بلاد المغرب الاسلامي أين عرفت عدة دويلات منها الدولة الحفصية التي بسطت نفوذها على المغرب الادنى ، واستطاع ابو زكريا تأسيس الدولة الحفصية التي عرفت ازدهار وتطورا في شتى الجوانب .

مصادر ومراجع الدرس الاول :

1. **عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح صلاح الدين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت ، لبنان**
2. **عفيفي محمود إبراهيم، بنوغانية في بلاد المغرب، دار الثقافة، القاهرة، مصر، 1986.**
3. **محمد العروسي المطوي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1986م**
4. **الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية الج ، الجزائر، 1983م.**

[1] وهي مدينة قديمة بناها الرومان وسط سهل فسيح يمتد شرقا ، وتبتعد عن تونس بنحو اربعة وثلاثين ميلا ، ليون الافريقي ، وصف افريقيا ،ج2 ، ص 67.

Scanné avec CamScanner

5. أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ، المغرب 1972م.
6. أبو عبدالله محمد التجاني، رحلة التجاني ،تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، المطبعة الرسمية ،تونس.
7. عبد الرحمان بن خلدون، العبرودیوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر(1336-1406) ، ج6، ط3،دار الكتب العلمية ،بيروت ،2006،
8. يوسف عابد، العلاقات بين الدولتين الحفصية والمملوكية(648هـ/1250م-694هـ/1269م)، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة،1995م
9. الزركشي، : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس
10. بن عذارة المراكشي، بيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب، تح: محمد بن تاويت وآخرون، قسم الموحدين، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1985م،

Scanné avec CamScanner

الدرس الثاني :التطورات التاريخية للدولة الحفصية:

مقدمة :

عرفت الدولة الحفصية عدة تطورات وتغيرات منذ تأسيسها سنة 600هـ 1204م ، ما بين قوة وضعف الا أن أهم وأخطر المراحل التي أثرت أيما تأثير على الحفصيين كانت بعد وفاة المستنصر سنة 675هـ1277م ،نتيجة الصراعات الداخلية وكذا سطوة الأعراب ونفوذهم في البلاد إضافة إلى التهديدات الخارجية .

1-4-فترة حكم المستنصر:

لماّ توفي أبي زكريا بويع أبو عبدالله الملقب بالمستنصر من قبل أهل الحل والعقد سنة 647هـ/1245م في مدينة تونس، ثم جاءته البيعة من شرفاء مكة المكرمة سنة 657هـ/1259م ليصبح والياً للخلافة العباسية.[1]

وقد عرفت بلاد المغارب في عهده عدة ثورات واضطرابات داخلية، أثرت أيّما تأثير على الجانب الداخلي وعلاقاته مع الخارج، ولعلّ أبرزها ثورة ابن اللحياني، الذي سعى إلى الحد من سلطة المستنصر، فأخذ يتآمر ضد هذا الأخير لكي تتحول الإمارة إليه والبيعة له من جديد، غير أن المستنصر لجأ إلى استعمال القوة والمواجهة ضد خصمه ابن أبي المهدي فقتله وكل أقربائه الذين ساندوه ودعموه ضد سلطنته وإمارته،[2] كما قضى أيضاً على تمرد قائده الظافر

---

[1] الوزير السراج، الحلل السندسية في الاخبار التونسية ،ط1،تقديم وتحقيق محمد الحبيب الميلة ،الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1970، ص 1028.

[2] عبد الرحمان بن خلدون، العبر...، ج6، ص 527.

Scanné avec CamScanner

الذي وكله المستنصر بالقضاء على ثورة اللحياني، كما علم المستنصر بقتل الظاهر لأبناء عمه محمد وإسحاق(الذين كان قد أيدا ثورة اللحياني) غضب منه المستنصر، غير، ظاهر تمكن من الهروب والتحالف مه أبي إسحاق للوقوف ضد المستنصر، ليتوجه ظاهر وأبو إسحاق نحو بسكرة ومنها إلى قابس التي استولى عليها مع حليفه، غير أن المستنصر عمد إلى سجن أبناء إسحاق، وكذا إلى خلق مشاكل للتحالف الذي كان بين ظاهر وأبي إسحاق، إذ نجح في إيقاع الفرقة بينهم ليفرّ أبي إسحاق نحو الأندلس.[1]

كما تعرضت الدولة الحفصية في عهد المستنصر لحملة صليبية سنة669هـ/1270م بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع مع أخيه شارل دانجو ملك صقلية، وجاءت هذه الحملة بعد رفض المستنصر دفع الأموال التي فرضتها صقلية على الدولة الحفصية مقابل حركة التعايش بين سكان صقلية وسكان الجالية الإسلامية في مدينة بلرم ونواحيها،[2] مما أدى إلى غضب شارل التاسع وأخوه، فتحركت حملة عسكرية كبيرة نزلت بساحل قرطاجنة، إلاّ أنّ الظروف التي عرفتها المنطقة حالت دون نجاح الحملة خاصةً بعد وفاة شارل التاسع بسبب الطاعون مما فرض الأمر الهدنة والجنوح نحو عقد اتفاق يقضي بدفع الحفصيين غرامة مالية، إضافة إلى عدم تعرض التجار ورجال الدين المسحيين إلى مضايقات فوق أراضي الدولة الحفصية.[3]

4-2-فترة حكم الواثق:

---

[1] عاشور بوشامة، علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة ، ص 45.

[2] أبي دينار أبو عبدالله، المؤنس في أخبار إفريقيا والأندلس، دار المسيرة، لبنان ، ص 1993م ص 136.

[3] عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 478

Scanné avec CamScanner

لمّا توفي المستنصر سنة 675هـ/1277م خلفه ابنه الواثق(أبو زكريا)، وقد عرفت فترة حكمه عدة اضطرابات ومشاكل، إذ لم يستطع السيطرة على الوضع الداخلي، بالنظر لعدم قدرته على التسيير وكذا ضعف شخصيته التي سمحت لبعض الأشخاص من السيطرة عليه، ففي فترة حكمه برز صراع بين رجال الدولة الحفصية والأندلسيين خاصةً بين سعيد بن أبي الحسين ويحي بن عبدالملك الغافقي وقد كانت كلمت هذا الاخير مسموعة في السلطة.[1]

فقد أثار يحي بن عبدالملك حفيظة أهل بجاية بعد أن عين أخاه عليها أبي علي إدريس، مما جعل أهل بجاية يقدمون على قتله بسبب التخريب الذي تعرضت إليه البلاد كما أساء معاملة السكان، ولم يبق الأمر عند هذا الحد وإنّما اتجاه أهل بجاية لمبايعة أبي اسحاق إبراهيم عم الواثق بتلمسان، الذي رحب بالفكرة، الذي خرج بجيشه نحو بجاية وتمكن من دخولها سنة 677هـ/1279م ثمّ توجه إلى نحو تونس فما كان للواثق إلاّ الاستسلام أمام أبو إسحاق وتنازل له عن العرش ودخل أبي إسحاق تونس سنة 678هـ/1280م.[2]

كما قضى أبي إسحاق على ثورة صاحب قسنطينة سنة 679هـ/1281م، الذي ثار ضد أمير بجاية أبي فارس عبد العزيز وأعلن انفصاله، غير أن هذه الثورة فشلت بعد أن تمكن أبا فارس من حصار قسنطينة وقتل صاحب قسنطينة سنة 681هـ/1283م.

---

[1] عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، شركة دار الأئمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 93.

[2] ابو العباس احمد ابن الخطيب (ابن قنفد)، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ،تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر ، عبد المجيد التركي ، الدار التونسية للنشر، 1968 ، ص ص 136-137 .

Scanné avec CamScanner

كما تصدى أبي اسحاق لمواجهة أحمد مرزوق بن أبي عمارة المسيلي الملقب بالدعي الذي تمكن من الاستلاء على عدة مناطق من إفريقية، غير أنّ الدعيْ تمكن من الحاق الهزيمة بأبي إسحاق مما اضطرّ إلى الانسحاب والتوجه نحو بجاية مهزوماً، وكانت الفرصة لابنه أبو فارس الذي ضغط على أبيه أبي إسحاق ليتنازل له عن الحكم، وفعلاً تنازل له عن الإمارة وبايعه كبار شيوخ الموحدين ولقب نفسه بالمعتمد بالله.[1]

3-4- فترة حكم المعتمد بالله:

كانت فترة حكمه قصيرة مقارنة بسابقيه، فقد سعى أبو فارس إلى القضاء على حركة الدعي، فخرج لملاقاته بالقرب من بجاية إلاّ أنّه انهزم وقتل في المعركة سنة682هـ/1284م فاضطربت الأحوال في بجاية وعمّ الغضب بين السكان ففر الأمير أبي إسحاق ومعه ابنه أبو زكريا إلى تلمسان والتي كان بها صهرهما أبو سعيد بن عثمان بن يغمراسن بن زيان.[2]

إلاّ أنّ أهل بجاية غضبو على أبي إسحاق وسلموه للدعي، بينما فرّ ابنه نحو تلمسان، وقد تمكن أبو حفص عمر بن أبي زكريا من القضاء على حركة ابن أبي عمارة(الدعي) وأعاد الإمارة إلى حكم الحفصيين من جديد، غير أنّ أبا زكريا ابن إسحاق إبراهيم أعلن نفسه أميراً على بجاية بعد أن استولى عليها، فانقسمت الدولة الحفصية إلى قسمين مملكة في الشرق عاصمتها تونس بقيادة أبو حفص ومملكة في الغرب عاصمتها قسنطينة وبجاية وأميرها أبو زكريا بن إسحاق إبراهيم، وقد تحرك أمير بجاية أبي زكريا نحو تونس سنة 686هـ/1287م وفرض عليها

---

[1] الزركشي، تاريخ الدولتين، ص 165.

[2] أمينة بوتشين، بجاية دراسة تاريخية وحضارية بين القرنين السادس والسابع الهجريين، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2007-2008، ص 34.

Scanné avec CamScanner

حصاراً، غير انّه لم يستطيع الدخول لتونس، فشل حصاره وعاد إلى بجاية بعد أن سمع بغزو السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن الذي تحالف مع أبي حفص، هذا الأخير خلفه ابنه أبو عبد الله محمد الثاني الحفصي الذي تحالف مع المرنيين من أجل توحيد الدولة الحفصية وضم مملكة الغرب لإمارته وأيد الحصار الذي ضربه المرنيون على تلمسان سنة 698هـ/1299م.[1]

ولمّا توفي أبي زكريا سنة699هـ/1300م رغب السلطان المريني أبو يعقوب في التوسع على حساب بجاية غير أنّه فشل في حصارها، وقد استطاع أبو البقاء من ضم تونس إليه الى أن توفي السلطان أبوعصيدة خرج أبو البقاء نحو تونس واستطاع إلقاء القبض على السلطان أبوبكر بن عبد الرحمان حفيد أبي بكر بن أبي زكريا الأول وقتله، وأصبحت بذلك مملكة واحدة عاصمتها تونس.[2]

وقد وضع أبو البقاء كل من عبد الرحمان بن خلوف أميراً على بجاية وعلى قسنطينة أبابكر، هذا الاخير كان يتحين الفرصة من أجل ضم بجاية إليه ، ولم يكتف بذلك بل توجه نحو تونس التي دخلها وفرض على أبي البقاء التنازل عن الإمارة وبالفعل تنازل أبو البقاء عن العرش لأبي زكريا الليحاني الذي بويع سلطاناً جديداً سنة 711هـ/1312م على الجزء الشرقي من المملكة، وأصبح أبو يحي بن بكر الثاني أميراً على الجزء الغربي للإمارة.[3]

---

[1] عبد الرحمان بن خلدون، العبر...، ج6، ص 450.

[2] ابن قنفد، الفارسية، ص 158.

[3] محمد مبارك الميلي، تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، دار الغرب الإسلامي، لبنان ،د ت، ص 392.

Scanné avec CamScanner

ثم بدأت حملات الزيانيين على بجاية، فقد وجّه السلطان أبو حمو موسى بن عثمان سنة714هـ/1316م حملة للاستلاء عليها إلاّ أنها فشلت ثم عاود حملة أخرى سنة 716هـ/1317م، فشلت هي الأخرى، وفي عهد أبي تاشفين عبد الرحمان لم تسلم بجاية أيضاً من رغبته في السيطرة عليها ففرض عليها حصاراً سنة729هـ/1329م واستطاع الوصول إلى العاصمة تونس سنة 730هـ/1330م،[1] التي دخلها ولكنه لم يستطيع الصمود في وجه محاولات السلطان الحفصي أبي يحيى أبو بكر الذي استطاع افشال محاولات بنو زيان لضم المدينة إلى مملكتهم، وهكذا وجد السلطان الحفصي أنّه ليحد من أطماع الزيانيين عقد تحالف مع السلطان المريني أبي سعيد لمواجهة أطماع الزيانيين في المنطقة.

غير أن الأمور عادت إلى ما كانت عليه إذ انقسمت الإمارة إلى قسمين قسم شرقي تحت نفوذ الدولة الحفصية والقسم الغربي تحت نفوذ المرنيين ما بين (754هـ-758هـ)(1353م-1356م)، ثم توحدت الدولة الحفصية من جديد بفضل قوة وصلابة السلطان أبو العباس أحمد بن المستنصر الذي حكم ما بين(772-796هـ)، اذ بدأت البلاد تسترجع وحدتها لتواصل الدولة تطورها وازدهارها وبسط نفوذها على كامل البلاد التونسية والطرابلسية وبعض الاجزاء من المغرب الاوسط ، إذ عمّ الاستقرار في البلاد وقضى على الثورات والفتن التي أحاطت بالإمارة، كما ازدهرت الحياة الاقتصادية والعلمية في عهده،[2] ونفس الأمر لماّ وصل إلى الحكم ابنه أبو فارس عبد العزيز الذي خلف والده بعد وفاته، الذي اتجه هذا الآخر نحو توسيع نفوذ إمارته فتمكن من دخول تلمسان سنة827هـ/1424م، كما قضى على النصارى

---

[1] عبد الرحمان بن خلدون، العبر...، ج6، ص 487.

[2] ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص ص 150-151.

Scanné avec CamScanner

الذين نزلوا في بلاد الجريد سنة 835هـ/1432م ، فسلك هو الآخر سياسة أسلافه حتى أنّه قدم مساعدات للمسلمين الأندلسيين، ثمّ خلفه حفيده الأمير عمرو عثمان الذي حكم البلاد ما بين (839هـ-893هـ) (1436-1488) الذي كان آخر السلاطين الاقوياء، وهي أطول فترة حُكم، إذ عرفت الدولة الحفصية في عهده أوج عطائها وقوتها، خاصةً وأنه ساهم في اخضاع القبائل العربية بإفريقية.[1] كما استطاع القضاء على نفوذ وسطوة الاعراب والمتنفذين في الجكم واعلن حربا لاهوادة فيها ضدهم ،وقضى على التمردات التي اثرت على استقرار البلاد ، وانفصلت عديد القبائل في عهده عن الدولة نتيجة سياسته ،وتمرد بعض أقرباءه واعلنوا الحرب ضده مثلما فعل عم ابيه ابوعبد الله احمد الحسين وعمه ابو الحسن بن السلطان ابي فارس ، واستطاع القضاء على هذه التمردات بالرغم من استمرارها لمدة طويلة قارب بعضها 17 سنة .

قام بالعديم من الاعمال لإعادة هيكلة الادارة المحلية للحكم وتنظيمها وفقا لسياسته ورؤيته ومتطلبات عصره ،اما خارجيا فقد سعى الى تأمين الجبهة الخارجية بعقد عدة اتفاقيات مثلما فعل مع إمارة أرغونة والبندقية وجنوة وغرناطة ، كما سعى إلى ربط أواصر الود والتعاون مع محيطه الاسلامي ومنه الدولة العثمانية .

وبوفاة عمرو عثمان دخلت الدولة الحفصية مرحلة التدهور والضعف، فلماّ تولى ابن عمه أبو زكريا يحيى الحفصي زمام الأمور سنة 893هـ/1488م لم يستطع السيطرة على الوضع الداخلي الذي انهكته التمردات والثورات الداخلية،[2]ودخلت البلاد في حالة من اللااستقرار

---

[1] الزركشي، المصدر السابق، ص 116.

[2] ابن أبي دينار ، المصدر السابق ، ص 159.

Scanné avec CamScanner

والضعف العسكري والتراجع الاقتصادي والتخلف الفكري والثقافي ، وكانت عواقب ذلك فيما بعد تسليم البلاد للمحتلين الاسبان الذين كانت أولى محاولاتهم هجوم بيدرو نافارو على جزيرتي جربة وقرقنة سنة 905هـ 1500م . وازداد ضعف البلاد في فترة حكم أبو عبد الله محمد الحسن 1494-1526 الذي ضعفت البلاد في عهده وكادت تنهار نهائيا ،إذ فقد السيطرة على عدة أقاليم وتمردت عدة قبائل على حكمه وسلطته ، ونتيجة لهذا الحال أعلن حكام القيروان تمردهم وانفصالهم، كما أعلن جميع زعماء مدن طرابلس الغرب انفصالهم عن السلطة الحفصية .

كما اضطربت أحوال الدولة الحفصية بعد وفاه أبو عبد الله محمد الحسن الذي خلفه ابنه محمد الحسن وكثرت في عهده الازمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ونظرا لهذه الظروف العصيبة أعلنت مدينة سوسة انفصالها عن الدولة وتشكيل إمارة مستقلة ، وتأكد انفصال مدينة القيروان[1] نهائيا تحت قيادة الشيخ عرفة أحد المرابطين ،كما استقلت جزيرة جربة نهائيا عن الحكم الحفصي ، إضافة إلى ثورات أخرى داخلية ومنها ثورة عبد المؤمن ابراهيم التي هزت أركان الدولة الحفصية زمنا ونتيجة لذلك اضطربت أحوال البلاد مع آواخر عهد المملكة الحفصية .

ونتيجة لهذا الوضع المتأزم وتردي الاحوال الداخلية من كل الجوانب ، زاد التدخل الاجنبي من تأجيج الوضع الداخلي ،والقصد هنا بداية ظهور الاسبان على السواحل والذين اخذوا في بسط هيمنتهم على المدن الساحلية ، إذ تمكنوا من الدخول إلى بجاية وعنابة وطرابلس الغرب

[1] بالفارسية كاروان ، بناها عقبة بن نافع الفهري سنة 50ه الى سنة 55ه ، ظلت لفترات طويلة حاضرة من اهم حواضر بلاد المغارب.

Scanné avec CamScanner

، فأصبحت الدولة الحفصية محاصرة من الشرق والغرب ، وفي هذه المرحلة تبدأ أحداث جديدة مع ظهور الاخوة بربروس على ساحة سواحل بلاد المغارب ، والذين بدورهم سيصبح لهم دور هام في المنطقة مع نهاية القرن 15 في ظل تراجع قوة الحفصيين من جهة ورغبتهم في التصدي للتحرشات الاسبانية والبرتغالية .

5-أسباب ضعف الدولة الحفصية :

1- انغماس بعض الولاة في اللهو والبذخ والترف واهمالهم شؤون الرعية .

2- انعدام الاستقرار السياسي والنزاعات القائمة بين افراد الدولة الحفصية حول أحقية الحكم .

3- شساعة مساحة الدولة الحفصية أدى الى عدم القدرة على السيطرة عليها ، اضافة الى عدم وجود ولاة ذوي كفاءة وقدرة على التسيير للاقاليم الدولة .

4- كثرة الحروب والفتن والثورات الداخلية التي انهكت الدولة الحفصية .

5- التدخل الاجنبي في الشؤون الداخلية للدولة الحفصية .

ملخص :

نخلص الى القول بأن الدولة الحفصية عرفت عدة تحولات نظرا طبيعة الحكام الذين فرضوا سلطانهم على البلاد ، خاصة مرحلة مابعد عمرو عثمان أين شهدت البلاد اضطرابات وتوترات داخلية خاصة الصراع على السلطة مما أثر على البلاد ، فأصحبت البلاد تعيش في فوضى جعلت المتربصين بها يستغلون هذا الوضع مع نهاية القرن الخامس عشر .

Scanné avec CamScanner

مصادرومراجع الدرس الثاني :

1. الوزيرالسراج، الحلل السندسية في الاخبارالتونسية ،ط1،تقديم وتحقيق محمد الحبيب الميلة ،الدارالتونسية للنشر، تونس ، 1970
2. عاشور بوشامة، علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة.
3. أبي دينارأبو عبدالله، المؤنس في أخبارإفريقيا والأندلس، دارالمسيرة، لبنان ، ص 1993م
4. عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائرالعام، ج2، شركة دارالأئمة للطباعة والنشروالتوزيع، الجزائر، 2009
5. ابو العباس احمد ابن الخطيب (ابن قنفد)، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ،تقديم وتحقيق محمد الشادلي النيفر، عبد المجيد التركي ، الدارالتونسية للنشر، 1968
6. أمينة بوتشين، بجاية دراسة تاريخية وحضارية بين القرنين السادس والسابع الهجريين، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2007-2008
7. محمد مبارك الميلي، تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، دار الغرب الإسلامي، لبنان ،د ت،

Scanné avec CamScanner

الدرس الثالث : التمردات والثورات في تونس الحفصية :

مقدمة :

بعد تردي الاحوال الاقتصادية والاجتماعية آواخر عهد الدولة الحفصية خاصة في فترة حكم الحسن ،بعد اغتصابه الحكم واهماله للرعية وسيطرة الاسبان عليه ، أدى هذا الوضع إلى قيام عدة ثورات وتمردات ضده من الاهالي أو من المقربين منه خاصة بعد حملة شرلكان الاولى سنة 1535 ومن التمردات التي عصفت باليلاد نذكر :

أولا :معارضة وتمردات الأهالي للسلطان الحفصي :

رفض أعيان تونس خدمة السلطان الحفصي فجمعوا تحت رايتهم الفلاحين واللاجئين الفارين من تونس الى جانب بعض الفرسان البدو ، وقادوا انتفاضة ضد السلطان الحفصي ومن كان يحتمي تحت لوائهم من الاسبان .[1]

وبعد ابرام السلطان الحفصي معاهدة الشؤم على التونسيين رفض شيخ الطريقة الشابية آنذاك الاعتراف بالحفصيين وأعلن تمرده عنهم واستقلال القيروان ، وثبت حاما مستقلا بإحياء سنة المرابطين والخلافة بتعيين يحي في منصب الخليفة ،الامر الذي جعل السلطان الحفصي يجهز حملة في سبتمبر ،غير أن حملته باءت بالفشل وألحقت الهزيمة بالسلطان الحفصي .[2]

---

[1] بيشي رحيمة : العلاقات التونسية الاسبانية في اواخر الدولة الحفصية ، مذكرة ماجستير في تخصص التاريخ الحديث ،اشراف الاستاذ شكيب بن حفري ، المركز الجامعي غرداية ،2011-2012 ،ص103.

[2] ابن ابي دينار :المصدر السابق ،ص170

Scanné avec CamScanner

قام الحسن الحفصي بإعادة حملة جديدة نحو القيروان عدة مرات الا أن حملاته كانت كلها فاشلة ،خاصة تدخل العثمانيين لمساعدة الشابيين ،كما أن تحالفه مع أحد زعماء أولاد بليل كانت هي الاخرى خاسرة إذ هرب من ساحة المعركة ، وإختبأ عند حليفه باضياف شيخ قبيلة أولاد سعيد وغير فرسه وعاد فارا مذلولا إلى تونس دون توقف .[1]

أعاد الحسن الحفصي تنظيم صفوفه من جديد على أمل القضاء على حركة الشابيين في القيروان والانتفاضات الشعبية ضده ،وفي سنة 1540 قام بحملة كبيرة من حيث العدد والعدة على مدينة القيروان ،معقل الشابيين والتي أيضا باءت بالفشل وهزم هزيمة نكراء ،ومما زاد من كراهية أهالي تونس للحسن تحالفه مع الاسبان ضد بني جلدته واصبح كثير التقرب من الاسبان لمساعدته خوفا أن يكون مصيره بين الاهالي والعثمانيين مجهولا.[2]

ثانيا :**محاولات الحسن الحفصي إخضاع القيروان:**

بعد واقعة الأربعاء التي سبق ذكرها أعلن سيدي عرفة استقلاله بالقيروان وبالمناطق التي يسكن فيها القبائل المواليين له، فبادر الحسن بمهاجمة القيروان باعتبارها الخطر الداهم على عرشه المهتز، ولأهميتها الروحية والعسكرية لأنها الوطن الروحي لأهل المغرب والمتصلة جغرافيا بموطن القبائل الممتدة في أرجاء إفريقية.

---

[1]**الوفسو دوروسو ، : الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، تر وتح: محمد عبد الكريم الوافي، جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا ،ص91**

[2]**بيشي رحيمة ، : المرجع السابق ،ص105**

Scanné avec CamScanner

أ معركة باطن القرن (942هـ/1535م):

اتجه الحسن الحفصي إلى القيروان بجيش مكون من بعض الأعراب والمسيحيين في شهر سبتمبر، ووصل إلى مكان يعرف بباطن القرن الواقع غربي القيروان، ولما عسكر فاجآه جيش الشابية ليلا مما أدى إلى وقوع معركة بينهم انتهت بهزيمة الجيش الحفصي الذي انضم أغلبه للشيخ عرفة، فعاد الحسن الحفصي إلى تونس مكسورًا بعد أن جرد من أمواله وسلاحه، وبعد أشهر قليلة أعاد الحسن حملة ثانية ضد آل الشابي، متحالفا مع أحد زعماء أولاد أبي الليل يسمى "عبد الملك[1].

إلتقى الجمعان في حوالي28 جانفي 1536م خارج أسوار القيروان، وانتهت المعركة بهزيمة الحسن الحفصي أمام القوات الشابية، فاضطر للهروب واللجوء إلى قبيلة أولاد سعيد عند شيخها باضياف المتحالف معه[2].

أما في الحملة الثالثة التي كانت في ربيع 1540م، تعرضت خلالها القوات الحفصية التي بلغ عددها قرابة ثمانية آلاف رجل بقيادة ابن السلطان الحفصي للهجوم فأبيدت عن آخرها[3].

بعد هذه الهزائم المتوالية للحسن الحفصي، أقسم أن يتصدى لها بالنصارى ويفعل بها ما فعل بأهل تونس.

---

[1] **محمد العروسي المطوي: السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الاسلامي، المرجع نفسه، ص705.**

[2] **يوسف بن حيدة: التواصل الصوفي للطرق الصوفية بين الجزائر وتونس خلال الفترة العثمانية "الطريقة الشابية نموذجا"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه ،في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: محمد مكحلي، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2017/2016م، ص119.**

[3] **نيقولاي ايفانوف: المرجع السابق، ص243.**

Scanné avec CamScanner

ب:واقعة المنستير (12 نوفمبر 1540م):

وافق الحسن على إقناع الإسبان بالقتال معه ضد سيدي عرفة، فقدموا له ثلاث فيالق إسبانية من صقلية ونابولي والمجر تحت إمرة الدون غارسيا دي توليد Don Garicia de Tolèdeفي سبتمبر 1540م، وأضاف إليهم البدو المواليين له، وفرقة الجنود الإسبانيين التي كانت موجودة في المنستير وعدد من قطع المدفعية، فكان مجموعهم ألفان من الإسبان و15000 من البدو الذين جاءوا جميعا مع نسائهم وأولادهم.[1]

أما الجيش الشابي في هذه الواقعة كان يتكون من قبائل البدو، والزمالات التي تضم النساء والأطفال وكان عددهم يزيد عن مائة ألف[2].

إلتقى الجمعان في مكان يتوسط المنستير وجمالة، يبعد عن جمالة والمنستير نحو 10كلم، ودارت بينهما حرب ضاربة استمرت يوما كاملاً من التاسعة صباحا إلى الغروب، انتهت هذه المعركة بهزيمة الحسن الحفصي، لأن أغلب جنده انحازوا إلى الجيش الشابي، ووقوعه في الكمين الذي أعد له، هذا ما اضطره للانسحاب نحو مدينة تونس وبمعيته جنود حامية المنستير الإسبانية الذين صدوا عنه هجمات الشابيين وغطوا انسحابه[3].

بعد هذه المعركة أصبح الحسن الحفصي في عزلة تامة، وتوقف الإسبان عن إمداده بالجنود والذخيرة حتى أن دي ميندوزا أشار مرارًا في رسائله أن الحسن لم يعد يطيقه أحد لأنه

---

[1] لحسن قرود: المرجع السابق، ص188.
[2] يوسف بن حيدة: المرجع السابق، ص120.
[3] البارون الفونص روسو: المرجع السابق، ص92

Scanné avec CamScanner

تسبب بويلات كثيرة لشعبه، ولما أحس هذا الأخير بالكراهية العارمة من قبل بني جلدته أصبح أكثر إلحاحا للحصول على مساندة من الإسبان والتوسل إلى الإمبراطور، كي لا يتركه لمصير مجهول، فكانت تونس تعاني حالة مضطربة، فالأهالي لا يوالون إلى المولى الحسن المعين عليهم من طرف الإسبان تحت قيادة شارلكان، وكانت المعارضة برئاسة ابنه أحمد، كما أن أكثر المدن استقلوا وكثير من القبائل انفصلوا عنه، حيث لم يتعدى حكم مولاي الحسن إلا أسوار المدينة[1].

ثالثا : **تمرد أبو العباس أحمد على والده الحسن الحفصي:**

حين أدرك مولاي الحسن اليأس وسد عليه الأمل وانقضى على هزيمته الرابعة في القيروان نحو ثلاث سنوات، قرر السفر إلى أوروبا ليطلب النجدة من شارل الخامس[2]، فسافر في صيف 1543م إلى إيطاليا لطلب النجدة بقصد القضاء على الشابية وإباحة القيروان وطرد الأتراك من الساحل الإفريقي، ولكن قبل وصول الحسن الحفصي إلى شارلكان فاجآته أحداث داخلية في تونس غيرت من اتجاهه، فقد وصلته أخبار تعلمه أن ابنه أحمد أمير عنابة جاء بعده إلى تونس ونادى بنفسه سلطانا عوض والده[3]، وذلك بالرغم من معارضة حامية حلق الوادي الإسبانية التي كان يقودها دون فرانسيسكو دي توبار.[4](Francisco de Tobar)

---

[1] لحسن قرود: المرجع السابق، ص189.

[2] علي الشابي: المرجع السابق، ص137.

[3] محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص706.

[4] البارون الفونص روسو: المصدر السابق، ص92.

Scanné avec CamScanner

ويعود سبب تمرد أحمد بن الحسن الحفصي إلى رفض استنجاد والده بأعداء الدين مرة أخرى، وأن البلاد في حالة فوضى، فاغتنم فرصة غياب والده وقدم إلى تونس وأحدث انقلابا على والده بعد استشارة الأعيان في تونس، واستطاع القضاء على أنصار والده ودخول المدينة، أما الحرس الإسباني الذي كان مكلفا بحماية السلطان الحسن فقد أيد الانقلاب.

حشد الحسن الحفصي في الحال بضعة آلاف من المتطوعين النصارى وجعل على رأسهم لوفريدو (Lofredo) النابوليتاني، وعبر البحر عائدا إلى تونس لمحاولة استرجاع الحكم من ابنه، يروي ابن أبي دينار في هذا الصدد قائلا: "ولما وصل الحسن بالنصارى هبطوا إلى البر فسمع السلطان أحمد وأهل البلد، ووقعت هرجة عظيمة، وخاف أهل المدينة أن يصابوا مثل المرة الأولى ففروا خفافا وثقالاً بنية الجهاد والمدافعة عن الأموال والأولاد، ونادى منادي أحمد: من أتى بأسير ورأس قتيل فله مائة دينار وجلس عند باب القصبة، وجعل الدنانير في قراطيس من الكاغد، وحرض الناس على الجهاد، فخرج أهل الربضين بلا سلطان معهم والتقوا بالنصارى والحسن، وكانت المصاف من قربة الكلخ (شرقي تونس) إلى سانية العناب[1]، فدارت بينهما معركة هزم مولاي الحسن وجيشه، وجيش الإسبان المتحالف معه، والتف سكان تونس حول أبي العباس لأنهم تخوفوا من أن يحدث لهم ما حدث على يد الإسبان في الحملة السابقة لشارلكان[2].

---

[1] بابن أبي دينار: المصدر السابق، ص157.
[2] الشافعي درويش : المرجع السابق، ص119.

Scanné avec CamScanner

أما الحسن الحفصي فقد تحصن بقلعة حلق الواد وهرب فأدركه أبو الهول أحد رؤساء الأعراب، وأتى به لابنه فاعتقله ثم أذهب بصره، وقبل وفاته ركب البحر مستنجدا بالنصارى من أجل أخذ المهدية لكنه هلك في الطريق ودفن في القيروان[1].

وعندما شاعت أخبار تلك الأحداث وصل إلى حلق الوادي ألف وخمسمائة جندي من جنود جيش نابولي، تحت قيادة ألونزو دي بيقاس (Alonso Pegas) لمساعدة حاكم هذه المنطقة للإطاحة بأبي العباس أحمد الحفصي، فلم تلبث تلك القوة النصرانية أن طردته من العرش واستبدلته بعمه عبد الملك، غير أن هذا الأخير توفي بعد تنصيبه بستة وثلاثين يوما فاختاروا بدلاً منه محمد[2].

بعد هذه الاحداث التي عرفتها تونس قام السلطان أحمد بمراسلة السلطان العثماني طالبا منه المساعدة من أجل إيقاف زحف الاسبان نحو تونس وكذا ايجاد وسائل من أجل ايقاف هيجان الاهالي وثوراتهم التي أججت الوضع الداخلي وأضحت تنذر بقيام ثورات كبيرة ضد الحفصيين ، ومن هذه المراسلات نذكر أنه أرسل السلطان أحمد محمد القصبي إلى الحسن بن خير الدين في الجزائر ثم بعث محمد المريش ، أما الاسبان فقد تراجعوا قليلا عن المناطق التونسية واللجوء إلى حلق الوادي .[3]

---

[1] الباجي المسعودي: الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تق وتح وتع: محمد زينهم، محمد عزب، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، 2013م، ص205

[2] البارون الفونص روسو: المرجع السابق، ص93

[3] الشافعي درويش ، علاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط مع إسبانية خلال القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: عمار بن خروف، جامعة غرداية، 2011/2010م ،ص 119.

Scanné avec CamScanner

قام الحسن الحفصي بمحاولات عديدة لتوسيع نفوذه وتمديد رقعته، إذ كان نفوذه لا يتجاوز تونس وجهاتها بينما كانت أطراف البلاد مستقلة عنه، ويتولاها الأعراب والأتراك أو الإسبان.

ب)تونس تحت سلطة أحمد بن الحسن الحفصي:

كانت الظروف الداخلية التي تولى فيها أحمد الحفصي (1543-1570م) ظروفا صعبة شديدة، فخزينة الدولة كان قد أفناها أبوه في شهواته والإنفاق على عسكر الإسبان لتخريب البلاد.

بالإضافة إلى ذلك فقد جابهه الأعراب وأحدثوا فوضى واضطرابات منهم أولاد سعيد شنوا عليه الغارات إلى أن وصلوا إلى الجبل الأخضر، وأخذوا بعض مواشي السلطان أحمد، فخرج لهم بنفسه وقتلهم، ولما استوثق له الأمر أعد جيشا تعداده ثلاثة آلاف وأطلق عليه اسم زمامزية، وأمر بقتال وألاد سعيد فبدد شملهم وأهانهم.

ويعتبر السلطان أحمد بن الحسن الحفصي أول من راسل ملوك الترك بحيث بعث أولاً محمد القصيبي في أيام حسن بن خير الدين، وبعث بعده محمد المريش، وبعدهم بعث أبا الطيب تاج الخضار للباشا علي وهو بمدينة طرابلس، وبعث الطيب مرة أخرى إلى القسطنطينية وهي البعثة الأخيرة، هذا ما يبين لنا إعلان تعاطف أحمد بن الحسن مع العثمانيين، أما البدو فقد عاملهم ككفرة معادين له.

Scanné avec CamScanner

تمثلت الركيزة الأساسية التي استند إليها حكمه لتونس الأعيان وكبار الرجال الحفصيين القدامى، ولتسيير شؤون الدولة وضع رئيس الحرس الإسباني خوان الذي تخلق بأخلاق المسلمين. أما مولاي محمد فلم يتمكن من الحصول على ثقة الأهالي[1].

ملخص :

ونخلص إلى القول بأن الدولة الحفصية تمكنت من بناء صرحها الحضاري على أنقاض الدولة الموحدية ، فعرفت فترات ازدهار وقوة وتوسع في نفوذها غربا وجنوبا ، وفترات من الضعف والتراجع وكثرة الثورات والفتن الداخلية ، ونتيجة لهذه أسباب التي منها ماهو داخلية ومنها ماهو خارجي ، أصبحت محط أنظار القوى العالمية الناشئة في تلك المرحلة ، خاصة مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر .

مصادرومراجع الدرس الثالث :

[1] نيقولاي ايفانوف: المرجع السابق، ص248.

Scanné avec CamScanner

1. بيشي رحيمة : العلاقات التونسية الاسبانية في اواخر الدولة الحفصية ، مذكرة ماجستير في تخصص التاريخ الحديث ،اشراف الاستاذ كيب بن حفري ، المركز الجامعي غرداية ،2011-2012
2. الوفسو دوروسو ، : الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، تروتح: محمد عبد الكريم الوافي، جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا
3. محمد العروسي المطوي: السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الاسلامي، المرجع نفسه، ص705.
4. [1] يوسف بن حيدة: التواصل الصوفي للطرق الصوفية بين الجزائر وتونس خلال الفترة العثمانية "الطريقة الشابية نموذجا"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه ،في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: محمد مكحلي، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2017/2016م
5. الباجي المسعودي: الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تق وتح وتع: محمد زينهم، محمد عزب، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، 2013م
6. الشافعي درويش ، علاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط مع إسبانية خلال القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: عمار بن خروف، جامعة غرداية، 2011/2010م

Scanné avec CamScanner

الدرس الرابع :الاوضاع في الحوض الشرقي للمتوسط خلال القرن السادس عشر

أولا : الاحتلال الإسباني لسواحل الحوض الشرقي للمتوسط :

مقدمة :

عرفت العلاقات الحفصية الإسبانية مراحل من السلم والحرب، وقد كانت هذه العلاقات مبنية على المصالح خاصةً من الإسبان الذين سعو إلى ربط الحفصيين بمعاهدات ذات طابع تجاري من أجل استغلال خيرات البلاد والحصول على امتيازات،خاصةً وأن الإسبان أخذوا في التدخل في شؤون الحفصيين متخذين من الضرائب المفروضة على الحفصيين فرصة للتدخل في شؤونها الداخلية، كما أنّ الإسبان اتجهوا إلى دعم المعارضين للحفصيين رغبة منهم في تأجيج الوضع الداخلي وإثارة الفتن والمشاكل، كما فعلوا مع الدعي وكذلك بن أبي دبوس ضد أبي حفص.[1]

مع مطلع القرن 16م اشتدت غارات الإسبان ضد وهران والمرسى الكبير، في إطار الحروب الصليبية التي شنوها على بلدان المغرب، ولما تمكن الإسبان من المنطقتين، كان الهدف الثاني للكاردينال خيمينيس هو نقل الهجوم من المغرب إلى المشرق، بالتوجه نحو بجاية نظرًا لأهمية موقعها وللمكانة التي تحتلها.

[1] المطوي العروسي، السلطنة الحفصية...، مرجع سابق، ص ص 277-279.

Scanné avec CamScanner

انطلق الأسطول الإسباني الموجه ضد بجاية بقيادة بيدرو نافارو (Pedro Navarro) من المرسى الكبير يوم 30 نوفمبر 1509، متهجا إلى جزر البليار، حتى يستطيع تحقيق المفاجأة، وقضى شهر ديسمبر هناك حيث جاءه المدد من إسبانيا.[1]

أبحر الكونت بيدرو نافارو متجها بحملته ضد بجاية ومعه 14 سفينة كبيرة محملة بالجنود ولم يشعر به أحد في بجاية، لذلك فوجئ أهلها بهجومه ففروا إلى الجبال فكانوا يظنون أن الدون بيدرو لن يلبث حتى ينسحب بعد نهب المدينة، غير أن الإسبان نقلوا ما بها من تحف ونفائس وعمدوا إلى تحطيم ما تعذر نقله، وتمكنوا من تشييد قلعة قرب البحر في موضع ملائم من الشاطئ.

وباحتلال بجاية دق ناقوس الخطر في شمال إفريقيا، إذ توجه الإسبان بعدها إلى احتلال عنابة في نفس السنة، مما جعل بقية المدن من الوسط وشرق وغرب البلاد تستسلم للإسبان وتهادنهم على دفع الضرائب

وأدى الانتصار المباشر للإسبانيين على حامية بجاية إلى خضوع السلطان الحفصي أبي عبد الله إلى السلطات الإسبانية وخضوع الجزائر وتعهد حاكمها سالم التومي بدفع الجزية[2].

ولما عجزت القوات الإسبانية أمام مقاومة سكان تونس من السيطرة على القسم الشرقي، رأى بيدرو نافارو أن يغير خطته ويبدأ بالتقدم باتجاه الساحل الشمالي عن طريق السيطرة على طرابلس الغرب ليتمكن بعدها من تضييق الخناق على القسم الشرقي.

---

[1] **صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي1514 .1830 ،دار هومة ، الجزائر ، 2012م، ص49.**

[2] **بسام عسلي: المرجع السابق، ص147.**

Scanné avec CamScanner

سبب أخذهم لطرابلس أن أهلها بعد دخولهم في طاعة الموحدين كثرت أموالهم وتجارتهم واطمأنوا ولم يشتغلوا بالحرب ولم تكن لهم الخبرة فقدمت عدة سفن مسوقة بأنواع البضاعة وفيها من كل نوع كثير فتقدم إليهم تاجر من تجار المدينة فاشترى عليهم جميع السلع وقدم لهم ثمنها، ثم استضافهم رجل آخر فصنع لهم طعاما فاخرا ورشه بالياقوتة، فلما رجعوا إلى بلدهم سألهم ملكهم عن حال البلاد فقالوا: "ما رأينا بلدا أكثر منها مالا وأقل سلاحا وأعجز أهلا من مدافعة العدو"، فتأهب ملكهما للاستيلاء عليها.[1]

لما بلغ أسطول "نافارو" شواطئ طرابلس فتح نيران مدافعه على المدينة، وكان ذلك على الساعة 9 من صباح يوم الخميس 25 جويلية 1510م، حيث تمكن الإسبان من إنزال 11.000 جندي برا فدخلوا شوارع المدينة وبدأ القتال، وكانت الحملة الإسبانية مكونة من 60 سفينة وعدد من المراكب ذات الشراعين و50 مركبا ذات الأشرعة الثلاثية و5 سفن مالطية مسلحة تسليحا جيدا[2].

تمكن الإسبان من احتلال المدينة بعد مقاومة ضاربة، ذهب ضحيتها الآلاف من المقاومين 6 آلاف طرابلسي، وأُسر أكثر من خمسة عشر ألف شخص، وتم تحرير 180 إيطاليا كانوا رقيقا لدى الطرابلسيين[3].

---

[1]أحمد بك النائب الأنصاري: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب،2ج، مكتبة الفرجاني، ليبيا، (د.س.ن)، ج1، ص185.

[2]ايتوري روسي: طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا، تر: خليفة محمد التليسي، المنشأة العامة لنشر والتوزيع والاعلام ، ط1، طرابلس، ليبيا، 1969م، ص18.

[3]جمال هاشم أحمد الذويب: تثبيت الحكم العثماني في طرابلس الغرب، المؤتمر الدولي الأول حول الدراسات العربية، جامعة الشريف علي الاسلامية ،بروناي، 2011م، ص335.

Scanné avec CamScanner

استقبلت أوروبا المسيحية نبأ احتلال طرابلس بفرحة عظيمة وشجع هذا النجاح ملوك إسبانيا أن يدفعوا بحملاتهم ضد إفريقيا الشمالية، وحتى يتسنى لهم الاحتفاظ بها كان عليهم الاحتفاظ بجربة التونسية التي كانت تهدد الأمن الإسباني بالمنطقة.

وبذلك اتخذ الإسبان مدينة طرابلس نقطة انطلاق فقاموا بمحاولات عديدة لاحتلال جزيرة جربة، حيث كانت المحاولة الأولى في شهر ربيع الأول (916هـ/1510م)، والثانية في الشهر الموالي من نفس السنة بقيادة بيدرو نافارو[1].

أرسى الأسطول الإسباني في قناة القنطرة بجربة فأنزل القائد ثلاث رجال يتكلمون العربية ويحملون أعلاما بيضاء إشعارا بمجيئهم للتفاوض، غير أن الجرابة لم ينتظروا منهم أي تبرير فقتلوا واحد منهم، وألزموا البقية برمي أنفسهم بالبحر، وأمام هذا التصدي أصدر بيدرو نافارو أوامره بالتراجع[2]. وفي نفس السنة رجع الأسطول الإسباني إلى جربة ضاربا الحصار على الجزيرة بمراكبه التي بلغت 120 سفينة تحمل 15000 من المقاتلين مدججين بأنواع الأسلحة[3].

جرت المعركة في جو خانق شديد الحرارة، فانتهت بكارثة حيث أخذت القوات المسيحية تتهافت في فوضى، وأقام العرب لهم مذبحة في الموقع.

وكانت النتيجة باهرة لإن نصر الله عظيم، فالإسبان لم يستطيعوا الثبات أمام المدافعين فانسحبوا إلى مركزهم بطرابلس يحاولون الكرة مرات عديدة، لكن زوابع الخريف حطمت أغلب السفن أثناء العمليات .. وفي الشتاء أعد الكونت حملة ضد جزيرة قرقنة وهو يهدف من

---

[1] رحيمة بيشي: المرجع السابق، ص55.

[2] شارل فيرو: الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، تر و تع: د. محمد عبد الكريم الوافي، جامعة قار يونس، ط3، بنغازي، 1994م ، ص79.

[3] يوسف بن أحمد الباروني: المرجع نفسه، ص42

Scanné avec CamScanner

ذلك بصفة خاصة إلى الحصول على قاعدة بحرية لسفنه ولعمليات قادمة يقوم بها ضد جربة أو الساحل، إلا أن هذه العملية أيضا كان نصيبها الفشل أما المحاولة الثالثة لاحتلال جربة التي وقعت سنة 962هـ 1520م بقيادة نائب ملك إسبانيا في صقلية فإنها لم تنجح كذلك رغم كثرة جيشها إذ كان يشمل ألف فارس وأكثر من ثلاثة عشر ألف من المشاة.

نشاط الأخوين عروج وخير الدين في بلاد المغرب:

مع بداية القرن 16م بدأت نشاطات الأخوين عروج وخير الدين تتوسع من الحوض الشرقي للبحر المتوسط نحو الحوض الغربي، خاصةً بلك الانتصارات التي حققوها ضد الغزاة المسحيين ودورهم الفعال في انقاذ مسلمي الأندلس ونقلهم إلى شواطئ بلاد المغرب.[1]

وقد بدأ ظهور العثمانيين في الشمال الإفريقي في الوقت الذي اشتدت فيه الهجومات الإسبانية على سواحل المغرب الإسلامي، واستفحلت عمليات القرصنة الأوروبية في البحر الأبيض المتوسط، ولم يستطع المغرب لوحده صد هذه الحملات الصليبية بسبب تمزقه وضعفه وعدم وجود سلطة مركزية، هذا ما كان يتطلب قيادة صارمة لإعادة الوحدة واللحمة بين مكونات سكانه[2].

وقد وجد الأخوين في جزيرة جربة منطقة هامّة لبداية نشاطهم، فإتخذوها قاعدة لهم في عهد السلطان الحفصي أبي عبد الله محمد بن الحسن ، إذ دخلوا عليه في تونس وقدموا له

---

[1] **أحمد بن محمد بن علي سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم العالي، مطبعة البحث، قسنطينة، الجزائر، 1973، ص 15.**

[2] **طاهر تومي: علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا ما بين 1520-1792م، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عبد القادر صحراوي، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2019/2018م ، ص106**

Scanné avec CamScanner

الهدايا وقال له << ... نريد أن تتفضل علينا بمكان نحمي فيه سفننا بينما نقوم بالجهاد في سبيل الله وسوف نبيع غنائمنا في أسواق تونس فيستفيد منها المسلمون في ذلك وتنتعش التجارة، كما ندفع لخزينة الدولة ثمن ما نحوزه من الغنائم...>>.[1] ونظراً لشجاعتهم ولصيتهم في أرجاء العالم أذن لهم السلطان الحفصي بالرسو في ميناء حلق الوادي الذي أصبح قاعدة لنشاطاتهم البحرية.و لما استقر عروج وخير الدين بحلق الواد، تعرفا على المأساة التي لحقت بالأندلسيين الفارين من الاضطهاد المسيحي، فقاما بإنقاذ عشرين ألف موريسكي مما أكسبهما شهرة شعبية واسعة2، وقد حقق الأخوان العديد من الانتصارات على القراصنة المسيحيين، الأمر الذي أثار إعجاب القوى الإسلامية الضعيفة في هذه المناطق.

وقد كانت بجاية الوجهة الأولى للإخوة عروج لتحريرها من الإسبان، لقد احتلت هذه المدينة سنة 916هـ/1510م، فتعرض أهلها إلى مذبحة شنيعة، هذا ما دفعهم للاتصال بالأخوين عروج وخير الدين، فكانت بجاية المحطة الأولى التي نزل بها جيش الأتراك العثمانيين بالجزائر لمحاربة النصارى وقد تكررت محاولة تحرير بجاية ثلاث مرات3.

فكانت المحاولة الأولى سنة 1512اذ اتجه الإخوة باتجاه بجاية فوجدا 15 باخرة حربية إسبانية ،ادعى أثنائها خير الدين الفرار أمام العدو وعندما لحقوا به استطاع عروج أن يغرق باخرة من

---

[1] خيرالدين، مذكرات،تحقيق محمد دراج ،الاصالة ،الجزائر ،2010 ص 46.

[2] ([182])Henri.D.De Grammant, Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830), Ernest Leroux, Editeur, Paris, 1887, p3.

[3] محمد لعباسي: أعمال خير الدين بربروس العسكرية في الجزائر من خلال مخطوط خبر قدوم عروج رايس إلى الجزائر وأخيه خير الدين لمؤلف مجهول من سنة 918هـ/1512م إلى سنة 953هـ/1546م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، إشراف: الجيلالي سلطاني، جامعة وهران، 2006/2005م، ص40.

Scanné avec CamScanner

بواخر العدو، وتمكن خير الدين من الاستيلاء على أخرى، وطلب هذا الأخير من عروج التراجع إلى الوراء، ولكن عروج نزل مع 50 مقاتلا وبعض المدافع وعلى الفور باشر بقصف الاستحكامات الإسبانية، وبعد ثمان أيام من القصف فتح ثقب في جدار القلعة، ولكن عروج أصيب بقذيفة في ذراعه الأيسر، وقتل ستين شهيد وعدد كبير من الجرحى، هذا ما أدى للعودة إلى تونس1.

وفي المحاولة الثانية التي كانت سنة 1514 تمكن عروج وخير الدين من بناء خمسة مراكب بعد عامين من الهزيمة الاولى وكانا يفكران في إيجاد مركز يكون لهما السيادة فيه، لذلك توجها إلى جيجل واستطاعا افتكاكها من الجنويين عام 1514م، فاتخذوا هذه المدينة قاعدة لهما بدلا من جربة وحلق الواد، لكونها أقرب إلى أماكن الصراع ضد القراصنة الإسبان، ثم إن سلطان تونس بدأ يضايقهما ففضلا الابتعاد عنه2.

ففي شهر أوت سنة 920هـ/ 1514م، وبطلب من علماء بجاية قاما بالهجوم على بجاية لكنهما لم ينجحا في افتكاكها من الإسبان.

أما المحاولة الثالثة فكانت سنة 1515م استعانا هذه المرة بوحدات من الأسطول البحري، بالإضافة إلى الجيش البري وتمكنا من فرض حصار دام ثلاثة أشهر، في هذه المدة فرغ البارود عن المسلمين فطلبوا الإعانة من سلطان تونس الذي رفض، خوفا على ملكه. وفي المقابل

---

[1] خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص52.

[2] يحي بوعزيز: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500-1830، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ص35.

Scanné avec CamScanner

حصلت إسبانيا على إمدادات كافية لفك الحصار، فعاد خير الدين إلى حلق الواد، أما عروج فاستقر بجيجل، وبعث إليه السلطان سليم الأول أربع عشرة باخرة مشحونة بالبحرين[1].

لم تكن بجاية لوحدها من استنجدت بالإخوة بربروس، بل استنجد بهم سكان مدينة الجزائر وتلمسان لتخليصهم من الخطر الإسباني المحدق بهم، وعندما نجح عروج وشقيقه خير الدين في قهر القوات الإسبانية، وإلحاق هزائم متوالية بهم، فتحالف ضدهم الحكام الضعفاء كـ: "سالم التومي" الذي قام عروج بقتله سنة 1518م، وأعلن نفسه سيدا على الجزائر، وبعدها توجه إلى حصن البنيون وقام بمهاجمته ولكن لم يتسنى له الإستلاء عليه، فتوجه إلى تلمسان من أجل إخضاع القبائل المتمردة، فوقعت بينه وبين الإسبان معركة قوية أدت إلى مقتله سنة 1518م، فحزوا رأسه وأخذوه معهم إلى إسبانيا وطافوا به في الشوارع.[2]

ملخص :

نخلص الى القول في نهاية هذا الدرس الى أن بداية القرن السادس عشر تمثل محطة هامة في تاريخ الحوض الغربي للمتوسط ، من خلال بروز قوى جديدة تصراعت فيما بينها من أجل فرض وجودها في المنطقة ممثلة في الاخوة بربروس المدعمة من طرف الدولة العثمانية والاسبان الراغبين في مد نفوذهم نحو الجنوب .

مصادرومراجع الدرس :

---

[1]مبارك محمد الهلالي الميلي: المرجع السابق ،ج3، ص38.
[2]حنيفي هلايلي: بابا عروج وبدايات تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة، ندوة علمية حول المجتمع والدولة في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 28 أفريل 2016م، ص10.

Scanné avec CamScanner

1. محمد العروسي المطوي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1986م صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي1514 .1830 ،دار هومة ، الجزائر، 2012م،
2. بسام عسلي: المرجع السابق
3. أحمد بك النائب الأنصاري: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب،2ج، مكتبة الفرجاني، ليبيا، (د.س.ن)، ج1.
4. ايتوري روسي: طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا، تر: خليفة محمد التليسي، المنشأة العامة لنشروالتوزيع والاعلام ، ط1، طرابلس، ليبيا، 1969م.
5. جمال هاشم أحمد الذويب: تثبيت الحكم العثماني في طرابلس الغرب، المؤتمر الدولي الأول حول الدراسات العربية، جامعة الشريف علي الاسلامية ،بروناي، 2011م
6. شارل فيرو: الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، تروتع: د. محمد عبد الكريم الوافي، جامعة قاريونس، ط3، بنغازي، 1994م .
7. أحمد بن محمد بن علي سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم العالي، مطبعة البحث، قسنطينة، الجزائر، 1973.
8. طاهر تومي: علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا ما بين 1520-1792م، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عبد القادر صحراوي، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2019/2018م ،
9. خيرالدين، مذكرات،تحقيق محمد دراح ،الاصالة ،الجزائر،2010 .
10. محمد لعباسي: أعمال خير الدين بربروس العسكرية في الجزائر من خلال مخطوط خبر قدوم عروج رايس إلى الجزائر وأخيه خير الدين لمؤلف مجهول من سنة 918هـ/1512م إلى سنة

Scanné avec CamScanner

953هـ/1546م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، إشراف: الجيلالي سلطاني، جامعة وهران، 2006/2005م..

11. يحي بوعزيز: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500-1830، دار البصائر، الجزائر، 2009م،

12. مبارك محمد الهلالي الميلي: المرجع السابق ،ج3،

13. حنيفي هلايلي: بابا عروج وبدايات تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة، ندوة علمية حول المجتمع والدولة في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 28 أفريل 2016م

14. ([182])Henri.D.De Grammant, Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830), Ernest Leroux, Editeur, Paris, 1887,

Scanné avec CamScanner

الدرس الخامس : تونس الحفصية من الاستقلال إلى التبعية

مقدمة :

تعرضت تونس في فجر التاريخ الحديث لحملات أوربية أوقعتها في مخالب النصارى ، وقد أسهم ضعف السلطة الحفصية وعدم القدرة على المجابهة في ضعف الدولة الحفصية وتأخرها في ايجاد اصلاحات للاوضاع المزرية ، وكان الصراع محتدما على تونس خلال القرن السادس عسر إلى أن فرض العثمانيون نفوذهم على البلاد نهاية القرن السادس عشر ، وتحولت البلاد إلى إيالة عثمانية يحكمها الاتراك بإسم الخليفة العثماني .

تحالف الإخوة بربروس مع الدولة العثمانية:

أول اتصال بين الإخوة بربروس والسلطان سليم الأول كان ببعث وفد إلى إستانبول يترأسه بيري رايس من أجل إخبار سليم أنهما يكملان مهمة كمال رئيس رغم أن ظروف المسلمين أصبحت أكثر خطورة، وبعث إليه 6 سفن محملة بالهدايا، فسّر السلطان بذلك وكافأهما بسفينتين مشحونتين بالسلاح والعتاد وهدايا أخرى1.

أما الاتصال الثاني فتم عندما بويع خير الدين في مدينة الجزائر خلفا لأخيه عروج الذي استشهد بالغرب الجزائري، هذا ما تسبب في سلسلة من الانتفاضات في جهات مختلفة ضد سلطة الأتراك، فاضطر خير الدين للبحث عن تحالف يعينه على الاستقرار والمقاومة ومواصلة الجهاد، فقرر خير الذين الذهاب لإستانبول، ولغرض ذلك جمع أهل الجزائر من

---

[1] محمد دراج: المرجع السابق، ص225.

Scanné avec CamScanner

العلماء والصلحاء وأخبرهم برغبته في الذهاب لرؤية السلطان العثماني قصد طلب المساعدة، فرفض الأعيان ، وطلبوا منه ارسال وفد ينوب عنه .

بعد وصول الوفد المبعوث إلى السلطان سنة 1518م استقبلهم وقبل عرضهم وهكذا أصبحت الجزائر تابعة رسميا للباب العالي وسارع السلطان سليم إلى منح رتبة بكلربك لخير الدين بربروس وأصبح القائد الأعلى للقوات المسلحة وممثلا للسلطان وأصبح أي اعتداء على الجزائر يمثل اعتداء على الدولة العثمانية، وأمده بحامية ومدفعية قوية وبعض قوات الانكشارية

وهكذا صارت الدولة العثمانية في شمال إفريقيا قوة ضاربة وعظم شأنها حيث أصبح لها أسطول ضخم يجابه الأساطيل الأوروبية[1].

إلحاق تونس بالدولة العثمانية

أولاً: أسباب توجه خير الدين إلى تونس

/1الانتقام من السلطان الحفصي أبي عبد الله محمد :ذلك لأنه رفض إرسال البارود والمواد اللازمة له عندما كان محاصرًا بجاية 1514م[2]، كما تحالف مع الإسبان وأعلن تبعيته لهم متعهدًا بدفع مبلغ من المال وفرسين من جياد الخيل وأربعة من طيور البازي كجزية سنوية، ظنا منه أن ذلك يخفف من وطأة الإسبان أو يثني عزمهم على إلحاق تونس بالإسبان، ولم يكتفي هذا السلطان بالاستعانة بالنصارى، بل حرض الأمراء المحليين ضد خير الدين ومن بين

[1] محمود السيد: تاريخ إفريقيا القديم والحديث، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 2006، ص235.

[2]. رحيمة بيشي: المرجع السابق، ص69

Scanné avec CamScanner

الذين استجابوا لتحريضه سلطان تلمسان مولاي عبد الله الذي فر إلى وهران مستنجدًا بالإسبان عند وصول قوات خير الدين إليه، كما استجابت بعض القبائل لتحريض سلطان تونس فأرسل إليها خير الدين قوة مكونة من ستة آلاف راجل وستة آلاف فارس، وقام بتأديبها وجعلها عبرة لغيرها.[1]

كما قام سلطان تونس بتحريض ابن القاضي ووعده بجعله أميرًا على الجزائر بعد طرد الأتراك منها، فأجابه برسالة جاء فيها "يا عجبا [2]أي شيء فعله معك خير الدين من الشر حتى تكتب لي فيه بمثل ما كتبت فإني لا أقدر على الخيانة، ولا يساعدني قلبي على المكر به ... فأقطع طعمك مني، فإني لا أتابعك على ما تريد، ولا يحصل مني ندم إن شاء الله..."، ولكنه تمرد على خير الدين فيما بعد طمعًا في توسيع نفوذه.[3]

هذه المؤامرات دفعت خير الدين لخوض حرب ضد سلطان تونس، فخرج إليه باثني عشر ألف من الرجال، فوقع السلطان الحفصي في الأسر ثم أطلق سراحه بعد تحذيره من تكرار فعلته هذه.

/2استنجاد الرشيد بخير الدين في سنة 1526م :توفي السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد فحل محله الحسن بن محمد [4]على العرش، فكان الحسن طاغية لم ينجو من بطشه سوى أخوه

---

[1] خير الدين بربروس : المصدر السابق، ص100

[2] محمد دراج: المرجع السابق، ص366.

[3] نفسه، ص367.

[4] الحسن بن محمد: هو ابن الحسن بن الحسن بن المسعود ابن المولى أبي عمرو عثمان، بويع بعد وفاة والده يوم الخميس 25 من ربيع الثاني سنة اثنين وثلاثين وتسعمائة، في عهده اضطربت الدولة الحفصية...للمزيد ينظر: محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار: المرجع السابق، ص157.

Scanné avec CamScanner

الرشيد الذي فر إلى أحد قادة القبائل العربية، يعرف باسم عبد الله، إلا أن هذا القائد لم يستطع مواجهة مدفعية السلطان ففر الرشيد إلى خير الدين مستنجدًا به، وعندما وصل الرشيد إلى خير الدين استقبله أحسن استقبال، لأن له فائدة كبيرة بإلحاق تونس بالأراضي التي سيطر عليها في المغرب الأوسط.

اصطحب خير الدين الأمير الحفصي معه إلى الأستانة عام 1533م، واستطاع أن يقنع السلطان سليمان بضم تونس إلى ولاية الجزائر، ومنح هذا الأخير لخير الدين لقب بايلارباي شمال إفريقيا، وزوده بتعليمات نهب كلابريا وصقلية ثم التوجه للاستيلاء على تونس، أما الرشيد فبقي في اسطنبول في مكان آمن، وقيض له راتبا شهريا، مع تأمين كافة احتياجاته من بيت الطعام.[1]

/3الموقع الاستراتيجي :ركز خير الدين على تونس لأهمية موقعها الإستراتيجي وذلك لإشرافها على المضيق الصقلي، بحيث تسمح له السيطرة عليها بتهديد أو قطع المواصلات بين حوضي المتوسط الشرقي والغربي، وجعل تونس أكثر اتصالا بالعالم العثماني من أي ولاية أخرى في شمال إفريقيا[2].

-/4ضعف الحفصيين :وذلك أن تونس كانت تعاني من ضعف بسبب الخلافات الداخلية التي تمزق الأسرة الحفصية، وكره السكان لسلطانهم الحسن بسبب طغيانه وفسقه.

---

[1] **لحسن قرود: دور الجزائر في تدعيم الحكم العثماني في تونس خلال القرن السادس عشر ميلادي، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: أرزقي شويتام، جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله، الجزائر، 2018/2017م، ص148.**

[2] **يسري الجوهري: شمال إفريقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط6، الإسكندرية، 1980م، ص142.**

Scanné avec CamScanner

-/5استنجاد بعض الأهالي بخير الدين بحيث طلبوا الدعم منه سنة 1532م

-/6تأمين الجهة الشرقية للجزائر :ولا يأتي ذلك إلا بالسيطرة على تونس وجعلها قاعدة متقدمة أخرى بعد الجزائر، لعمليات خير الدين ضد النصارى.

ثانيًا: حملة خير الدين على تونس (941هـ/1534م)

في عام 1533م عين السلطان العثماني سليمان القانوني خير الدين قائدًا للبحرية، فاهتم خير الدين بمسألة ضم تونس للدولة العثمانية تمهيدًا لبسط السيادة على كامل المغرب.[1]

ولهذا الغرض أعد خير الدين جيشا مؤلفا من حوالي ألف وثمانمائة جندي إنكشاري وستة آلاف وخمسمائة من الألبانيين والأناضوليين واليونانيين، بالإضافة إلى ستمائة من الأعلاج، وانطلق من القسطنطينية سنة (946هـ/1534 باتجاه تونس[2]، وفي طريقه توقف عدة مرات بجنوب إيطاليا من أجل أخذ الغنائم والأرقاء والماء والخشب، بحيث هاجم ريجو Rigo)) وضبط في مينائها ست سفن فأسرهم، وهدم القلعة الموجودة فيها، كما استولى على قلعة سانت أوسيدو (Sent usido)وأسر منها ثمانمائة شخص ثم أحرقها، ثم هاجم قلعة جيترارو (Gritaro)وأسر كافة من فيها بعد إحراقه لثمان عشرة سفينة مسيحية أمام قلعتها، ولم

---

[1] عبد الله مقلاتي: المرجع في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر (الجزائر، تونس، المغرب، ليبيا)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2014م، ص20.

[2] آرجمنت كوران: السياسة العثمانية اتجاه الإحتلال الفرنسي، تر: عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1970م، ص23

Scanné avec CamScanner

يكتفي خير الدين بذلك بل توجه إلى سواحل نابولي، فاستولى على قلعتها وأسر ما فيها، كما هاجم قلاع أسبرلونجا (Sperlongo) فخربها ودمرها بعدما أسر منها عشر آلاف شخص[1].

لقد كان غرض خير الدين من ضرب السواحل الأوروبية وتدميرها، نشر الرعب في نفوس الأوروبيين، وصرفًا لأنظارهم، لكي يتوجه إلى تونس

وصلت الحملة إلى عنابة يوم 15 أوت 1534م من أجل التنسيق مع القوات القادمة من الجزائر تحت قيادة حسن آغا، وتقدم إلى غاية قسنطينة، ثم قسم قواته جزء يسير نحو بنزرت برًا والآخر نحو حلق الواد بحرًا، فاستطاع الاستيلاء على مدينة تونس بسهولة بعد أن اغتنم الثورة التي نشبت فيها ضد حاكمها الحسن الحفصي حليف الإسبان.[2]

فتحت تونس أبوابها لخير الدين وتقبله أهلها على الرحب والسعة، ظنا منهم أنه أحضر معه الرشيد لينصبه على العرش، لكن خير الدين كان ينوي إلحاق تونس بالخلافة العثمانية مباشرة[3]، هذا ما أدى إلى معارضة بعض أعيان تونس لإلحاق بلادهم بالسلطة العثمانية، مطالبين بإعادة الرشيد إلى السلطة إلا أن خير الدين صمم على إنهاء سلطة الحفصيين وتوطيد سلطته بالبلاد، أما الحسن بمجرد دخول خير الدين إلى تونس فر إلى البادية.[4]

---

[1] عزيز سامح التر: المرجع السابق، ص110.

[2] إبراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني (1516-1916م)، مكتبة زيد للكتب الإلكتروني، الموصل، (د.س.ن)، ص50.

[3] الشافعي درويش: المرجع السابق ، ص05.

[4] عبد الله مقلاتي: المرجع في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر (الجزائر، تونس، المغرب، ليبيا)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2014م ، ص20.

Scanné avec CamScanner

عندما علم التونسيون أن الرشيد لم يأتي أرسلوا خبرًا بالسر إلى مولاي حسن، يطلبون منه العودة إلى تونس، وبدأوا يهيئون أنفسهم لمساعدته لاستلام الحكم ثانية، وفعلاً تشجع مولاي الحسن وجمع قواته واتجه إلى مهاجمة تونس، فوقعت معركة كبيرة بينهما كان من نتائجها مقتل 3000 تونسي و600 جريح، أما الخسائر في قوات خير الدين فكانت أقل بكثير من ذلك، واستطاع خير الدين القضاء على رؤساء الفتنة، فخضع له أهل تونس، أما الحسن فقد فر منهزمًا إلى القيروان حيث جمع حوالي خمسة عشر ألف جندي وما إن سمع به خير الدين حتى جمع بدوره خمس عشر ألف جندي، مزودين بالمدفعية ونقلها باتجاه مولاي الحسن، حيث التقى الطرفان في الصحراء، وجرت بينهما معارك طاحنة، كانت فيها الغلبة للعثمانيين بفضل مدافعهم المتطورة، فيما فضل مولاي الحسن الفرار من أرض المعركة، لأنه لم يكن لقواته سابق عهد بحروب المدفعية[1].

اتجه مولاي الحسن إلى إقليم قسنطينة وخلال الفترة التي أقامها هناك وثق الصداقة مع علج من أصل جنوي يدعى اكزيميا(Eczémie)، فنصحه بالاستنجاد بالإمبراطور شارل الخامس مستصرخا إياه العون والمساعدة مقابل الدخول تحت طاعته، وبذلك دخل الحسن الحفصي تحت الحماية الإسبانية للنجاة بنفسه[2].

---

[1] طاهر تومي: المرجع السابق، ص265.

[2] أندريه ريمون: المدن العربية الكبرى في العصر العثمانية، تر: لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1991م، ص21.

Scanné avec CamScanner

أما التونسيون فقد أعلنوا ولاء الطاعة للسلطان العثماني سليمان القانوني وخضعت تونس إلى جانب الجزائر للخلافة العثمانية، وصار ذلك يشكل خطرا كبيرا على الوجود الإسباني في شمال إفريقيا.

ملخص :

نخلص في نهاية هذا الدرس الى أن خير الدين وجه انظاره نحو غرب المتوسط واستغلال الوضاع المدهورة التي تعرفها السلطة الحفصية في عهد الحسن الحفصي ، مسغلا ايضا الدعم المادي والمعنوي من السلطان العثماني فوجه حملة نحو تونس سنة 1535.

مصادرومراجع الدرس :

1. محمود السيد: تاريخ إفريقيا القديم والحديث، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 2006،

Scanné avec CamScanner

2. لحسن قرود: دور الجزائر في تدعيم الحكم العثماني في تونس خلال القرن السادس عشر ميلادي، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: أرزقي شويتام، جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله، الجزائر، 2018/2017م

3. يسري الجوهري: شمال إفريقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط6، الإسكندرية، 1980م.

4. [1]عبد الله مقلاتي: المرجع في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر (الجزائر، تونس، المغرب، ليبيا)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2014م،.

5. [1]آرجمنت كوران: السياسة العثمانية اتجاه الإحتلال الفرنسي، تر: عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1970م

6. إبراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني (1516-1916م)، مكتبة زيد للكتب الإلكتروني، الموصل، (د.س.ن)

7. عبد الله مقلاتي: المرجع في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر (الجزائر، تونس، المغرب، ليبيا)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2014م.

الدرس السادس: حملة شارلكان على تونس (942هـ/1535م)

مقدمة :

Scanné avec CamScanner

بعد توجه خير الدين إلى تونس وظف شرلكان كل قواه من أجل تحقيق أحلام المسيحيين واستغلال فرصة الاوضاع المتدهورة في تونس خاصة مسألة التحالف مع الحسن الحفصي الذي يرغب في استعادة ملكه على تونس الحفصية بأي أسلوب كان ، فماهي أهم الاحداث التي ميزت حملة شركان على تونس في النصف الاول من القرن السادس عشر ؟

أولاً: أسباب توجه شارلكان إلى تونس

-استنجاد مولاي الحسن بالإسبان: بحيث لعب دورًا في تحريض الإسبان على القيام بهذه الحملة، رغبة منه في استعادة ملكه من العثمانيين، فوجد شارلكان هذا الطلب فرصة لاحتلال تونس وجعلها قاعدة متقدمة ضد العثمانيين.

-التجسس الإسباني :بعث شارلكان في سنة 1533م جاسوسا وهو الضابط أوشوادرسلا (Ochoad'Ericilla)[1]([44])، فطاف أنحاء تونس هناك اكتشف استعدادات الحفصيين للتعاون مع الإسبان[2]([45])، ومدى خطورة الامتداد العثماني على تونس، كما اقترح خطة على شارلكان بقصد احتلال تونس وأخبره أن التآمر على تونس أسهل من الجزائر وأكد أن احتلال تونس سيسهل على ملك إسبانيا احتلال إفريقيا ويجب البدء باحتلال جزيرة جربة كما اقترح في الحملة على تونس مشاركة 6000 رجل و20 أو 24 مركبًا، مع 10 أو

---

[1]أوشوادرسلا: قائد إسباني كان سجينا في تونس، أطلق الحسن الحفصي سراحه سنة 1533م... للمزيد ينظر :

Haedo Diego : Op.cit, P57.

[2] صلاح العقاد: المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر الجزائر، تونس، المغرب الأقصى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط6، مصر، 1993م، ص21.

Scanné avec CamScanner

12 سفينة نقل، أخذت هذه المذكرة مأخذ الجد ودرست بعناية من طرف الملك وحاشيته، وبعثت نسخة منها بأمر من شارلكان إلى الأمير أندري دوريا.

-دعم فرسان مالطا وتأمين الحماية لهم :عندما سلم شارلكان طرابلس الغرب لفرسان مالطا سنة 1530م، تعهد لهم بالحماية والدعم اللازمين، ولذلك وبمجرد سيطرة خير الدين على تونس أدرك فرسان مالطا الخطر الحفصي الحقيقي الذي يمثله الوجود العثماني بجوارهم فسارعوا للاستنجاد بالبابا شارلكان، وطلبوا من هذا الأخير الوفاء بتعهداته اتجاههم لأنه حامي المسيحيين، فحاول جاهدا تأمين الحماية اللازمة لهم، وتقديم المساعدة لهم، وعدم تركهم في مواجهة مصيرهم لوحدهم وقطع الطريق أمام خير الدين إذا فكر في حصار طرابلس.

-اعتبر شارلكان نفسه الحامي للعقيدة المسيحية، وجعل من توحيد المسيحيين لمحاربة المسلمين قضية كبرى[1].

-الأهمية العسكرية لموقع إقليم تونس في السيطرة على الملاحة في حوض البحر الأبيض المتوسط[2].

-وضع حد لغارات مجاهدي البحر العثمانيين والأندلسيين على السواحل الإيطالية والإسبانية، وقد وجد الإمبراطور شارلكان في هجمات خير الدين على سواحل إيطاليا الجنوبية واستيلائه

---

[1] زهراء النظام: العثمانيون والصراع المسيحي الإسلامي في غرب المتوسط في العثمانية والعالم المتوسطي مقاربات جديدة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 109، منشورات كلية الأدب، الرباط، 2003م، ص68.

[2] عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة الإسلام مفترى عليها، 4ج، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2004م، ج2، ص191.

Scanné avec CamScanner

على مرسى بنزرت، ودخوله مدينة تونس تحديًا يتوجب الرد عليه[1].

-موقع تونس الإستراتيجي :فموانئها تتحكم في مواصلات البحر الأبيض المتوسط، وتتوسط تونس بين الجزائر وطرابلس، وقربها من إيطاليا، ومجاورتها لجزيرة مالطا[2].

-اضطراب الأوضاع الداخلية لتونس :بعد سيطرة خير الدين على تونس لم تستقر الأوضاع الداخلية لها، وواجهته عدة مشاكل وتمردات منها:

-ممارسات بعض جنود الإنكشارية، ولد حقد وتنافر بين الأتراك العثمانيين والتونسيين.

-إحساس سكان تونس بخيانة خير الدين لهم، بعد تركه للرشيد بإستانبول.

-ولاء التونسيين للأسرة الحفصية لأنها أسرة محلية، فيما كان العثمانيون غرباء عن المنطقة.

-إدخال خير الدين تنظيمات وقوانين جديدة عن المجتمع التونسي، كان لها تأثيرات سلبية على العلاقات بين الطرفين.

وما شجع شارلكان على القيام بحملة على تونس هو الوعد الذي منحه ملك فرنسا فرانسوا الأول (François I) حليف الدولة العثمانية لشارلكان بالتزام الحياد وعدم التدخل في صراعه مع الدولة العثمانية[3].

ثانيًا: الاستعدادات للحملة

---

[1] ناصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب العثمانية، الجزائر، تونس، طرابلس الغرب، البصائر للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 2014م، ص22.

[2] عبد المنعم الجميعي: الدولة العثمانية والمغرب العربي، دار الفكر العربي للطبع والنشر، مصر، 2006م، ص53.

[3] إلهام يوسف، ولاء علي صقر: الصراع الإسباني العثماني على تونس (941- 982ه/1534-1574م)، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية ، سلسلة الأدب ،والعلوم الإنسانية ،ع 5 ، (د، م، ن)، 2018/11/22م، ص407.

Scanné avec CamScanner

-1الاستعدادات الإسبانية:

لما وصل للإمبراطور شارلكان خبر سقوط تونس اتحد مع رهبنة القديس حنا الأورشليمي (Hanna Al-Urshlimi)من أجل استرجاع تونس[1]، وقرر أن يخرج بنفسه إلى هذه الحملة مع التحضير لها بشكل سري[2]، وأمر بإعداد سفنه الموجودة في موانئ إسبانيا وجنوه ونابولي وصقلية، وأن تعد مع سفن الحرب سفن أخرى لنقل الأكل والذخائر وغيرها من لوازم الحرب، وكتب الإمبراطور شارلكان إلى الدون يان (Don yan) ملك إسبانيا بأن يبعث إليه غليونه وكذا عددا من قطع أسطوله الحربي.

كانت قوات الأرمادة المسيحية الإسبانية ضخمة، لأن شارلكان أرادها حملة صليبية حقيقية تكونت من الإسبانيين والإيطاليين والألمانيين والهولنديين والنابوليين والصقليين بالإضافة إلى فرسان القديس يوحنا في جزيرة مالطا، فنزلت أولا القوات الألمانية ثم تلتها القوات الإسبانية ومن بعدها الإيطالية إلى البر، ويضم الأسطول قرابة 400 سفينة من مختلف الأنواع والأحجام، بما في ذلك 90 سفينة مماثلة على متنها 26000 من جنود المشاة وقرابة ألفي فارس، ومنهم من قال 30000 مقاتل على ظهر 500 سفينة، كما كان على رأس تلك القوات أبناء العائلات الإسبانية والإيطالية النبيلة، أما القيادة العامة فتولاها شارلكان شخصيا، وفيما يلي بيان بالتفصيل لقوات هذه الحملة.

---

[1] **محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان حقي، دار النفائس، ط1، بيروت، 1401ه/1981م، ص232.**

[2] **كربخال مارمول : إفريقيا،تر: محمد حاجي،محمد الأخضر وأخرون،3ج،دار نشر المعرفة، الرباط،(د،س،ن)،ج3 ، ص32.**

Scanné avec CamScanner

أ (القوات البحرية مكونة من عدة فرق:

-الفرقة الإسبانية والفلاندر: تتكون من 54 سفينة غالير، و70 سفينة كبيرة إبريقية، وضعت تحت قيادة أندري دوريا.

-الفرقة البرتغالية: تتكون من 27 سفينة تحت قيادة أنطونيون سالدانا (Antoine de Saldanha).

-الفرقة الإيطالية المالطية: تتكون من 36 سفينة حربية (غالير)، و28 سفينة ضخمة تحت قيادة ألفار بازان .[1](Alvar Bazan)

ب(الجيش البري المحمول:

المشاة وتتكون من:

-قوات إسبانية، (القوات القديمة التي خاضت حرب إيطاليا): أربعة آلاف رجل، تحت قيادة الجنرال المركيز جوازان .(Marquis de Guast)

-قوات إسبانية (المجندون الجدد) ثمانية آلاف رجل، تحت قيادة دوق الألب فرديناند الطلطلي .(ferdinand de Tolède)

-قوات ألمانية سبعة آلاف رجل، تحت قيادة مكسيميليان بيدرا بونيا (Maximilien Piedra Buena).

-قوات إيطالية: ألفان من الرجال، تحت قيادة الفتى لويس البرتغالي.

سلاح الفرسان :يتكون من متطوعين من النبلاء ينتمون إلى مختلف الأمم النصرانية: ألف رجل، تحت قيادة الماركيز دي موندیجار (Marquis de Mondejar)

---

[1]الشافعي درويش: الحملة الإسبانية على تونس 1535م، المرجع السابق، ص06.

Scanné avec CamScanner

-سلاح فرسان إسباني: خمسمائة رجل، تحت قيادة القائد السابق نفسه.

-2الاستعدادات الإسلامية :

اختلفت الروايات التاريخية حول استعدادات خير الدين لمواجهة حملة شارلكان، فذكر مارمول أن خير الدين علم باستعدادات شارلكان لكنه لم يتأكد منها بصفة تامة إلا عندما حل بحلق الوادي راهب فلورانسي فأخبر خير الدين بجميع استعدادات الحملة مؤكدًا له أن الإمبراطور شارلكان سيشارك في الحملة بنفسه، هذا ما دفع خير الدين للاستنجاد بالسلطان سليمان والباشوات، ولكن سليمان في ذلك الوقت كان مشغولاً بالحروب في آسيا، أما باشوات القسطنطينية لم يكن عندهم من الوسائل ما ينجدون به بارباروس حتى ولو رغبوا في ذلك[1].

أما نيقولا ايفانوف: يذكر أنه فور وصول أنباء الاستعدادات الإسبانية حتى شرع خير الدين بتحصين المدينة، فقد زود حلق الواد بالمدافع، والبرزخ الذي تمر عبره الطريق إلى العاصمة أقفله بحاجز من الصخور والأعمدة الخشبية المدعمة بأكياس الرمال، وحفرت الخنادق، ووضعت اثنتا عشر من أفضل السفن الحربية على رصيف حلق الواد، وجمع مئات من المدافع، وفي المساجد ألقيت المواعظ والخطب لرفع المعنويات القتالية بين الأهالي والمجاهدين، وقام بتصفية 12 ألف من العبيد المسيحيين الموجودين بتونس[2] أما المصادر الإسلامية فقد ذكر ابن أبي ضياف: أن خير الدين لم يهتم بالاستعدادات الإسبانية قائلا: "ولما

---

[1] مارمول كربخال: المصدر السابق، ج3، ص33.

[2] نيقولاي ايفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية (1516-1574م)، تع: يوسف عطا الله، دار الفارابي، ط2، بيروت، لبنان، 2004م، ص231

Scanné avec CamScanner

بلغ خبر ذلك لخير الدين الذي بالحاضرة، احتقر عدوه وأضاع العزم، واعتمادًا على علو كعبه وشيوع صيته، فجاءه أهل الحاضرة وطلبوا منه أن يحضر أسطوله لدفاع الصبنيول قبل نزوله إلى البر، فلم يضع لهم، وغالب ما يأتي على الشجعان من هذا الباب.[1]

أما المجهول في كتابة غزوات عروج وخير الدين يذكر: أن خير الدين لم يعلم بأمر الحملة إلا عندما بدأ إنزال القوات الإسبانية بحلق الوادي فتأكد الأهالي منها، وبعثوا بمرسول لخير الدين يعلمونه بوصول النصارى.[2]

ومما سبق أرى أن خير الدين كان على علم بالحملة الإسبانية على تونس، واستشهد في ذلك بقوله خير الدين "...علمت بأنه سوف يتوجه إلى تونس لإخراجنا منها ولأجل ذلك شرعت على الفور في الاستعدادات للتصدي له.

رغم الاستعدادات التي قام بها خير الدين إلا أنه لم يتمكن من جمع إلا 7.000 من الأتراك، ونحو 5.000 من أهال تونس المؤيدين له، وهذا ما يبين لنا عدم تكافؤ القوة بين قوات شارلكان وقوات خير الدين، إلا أن هذا الأخير أراد أن يقيس نفسه بأكبر ملوك المسيح، ويمشي بشجاعة لمقابلته وقتله.

ثالثًا :إنطلاق الحملة ومجرياتها

---

[1] أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، 8ج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الدار التونسية للنشر، الجزائر، تونس، 1974م، ج2، ص13.

[2] مجهول: غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتع: نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية، الجزائر، 1353ه/1934م،، ص95.

Scanné avec CamScanner

-1إنطلاق الحملة:

انطلقت الحملة من مدينة برشلونة في 31 ماي 1535م بقيادة شارلكان الذي كان يرافقه أندري دوريا بصحبة نخبة من أشراف إسبانيا باسطنبول بلغ عددهم مائتي سفينة حربية و25 ألف جندي من المشاة و600 من الفرسان[1].

وصل هذا الأسطول إلى قرطاجة وسواحل مدينة تونس يوم 16 جوان 1535 فوقعت بينهم وبين أعراب المنطقة بعض المناوشات في الليل.

ظلت قوات شارلكان شهرا كاملا تحاصر حلق الواد والتحصينات المحيطة به، في المقابل نجد أن العثمانيين كانوا بقيادة سنان رئيس، يقومون بهجماتهم ليلا نهارًا، فاقتحموا خنادق العدو مرات عديدة، لكنهم كانوا يتراجعون تحت ضغط نيران السفن الإسبانية، كما حاولت حامية حلق الوادي احتلال المعقل الذي أقامه الإسبان مرتين، ففي المرة الثانية التي جرت في 23 جوان 1535م تمكنوا من طرد قوات المشاة الإيطالية، وقتل قائدها ساردنو(Sardino) ، وخلال هجوم آخر تم في 25 جوان تمكنوا من القضاء على خمسة وعشرين جندي وعدد من الضباط، كما أُصيب خلاله الماركيز دي موندیجار بجراح بليغة[2].

---

[1] سعيد أحمد برجاوي: الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1993م، ص116.

[2] عبد القادر فكاير: الصراع الجزائري الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: جمال قنان، جامعة الجزائر، الجزائر، 2001/2000م، ص152.

Scanné avec CamScanner

هذا ما دفع شارلكان إلى طلب الإمدادات التي وصلت إليه سريعًا، فنصب تجاه حصن حلق الوادي مائة وعشرين مدفعًا، ومن البحر ثمانين، وأخذ في قتال المسلمين ثم تقدم إلى البرج بحملة مدفعية، هذا ما عطل على المسلمين مدافعهم ففروا إلى مدينة تونس،[1] أما النصارى فاستطاعوا الدخول إلى حلق الوادي يوم 14 جويلية 1535، واستولوا على سبع وثمانين سفينة، وثلاثمائة مدفع، وعندما علم الحسن الحفصي بنبأ إنزال قوات شارلكان في حلق الوادي، انضم إليهم وليس بمعيته سوى مائة وخمسين فارسًا، بدل ما كان قد وعد به شارلكان من قوات عديدة.[2]

بعدما استطاع شارلكان الاستيلاء على حلق الوادي توجه بقواته إلى مدينة تونس يوم 17 جويلية 1535 وكان في طريقه يقطع أشجار الزيتون ويحرق القرى، فعندما علم خير الدين بذلك خرج لقتاله على رأس الفصائل التونسية المسلحة والقوات العثمانية والتعزيزات التي وصلت إليه من الجزائر، بحيث كان عددهم ستة عشر ألفا ومائة رجل.[3]

التقى الجمعان بخربة الكلخ شرقي مدينة تونس وانتشب القتال بينهم، فكانت مقتلة عظيمة، تأرجحت كفة النصر عدة مرات بين الطرفين، وفي النهاية انتصر الإسبان بسبب تدخل البربر الذين أحدثوا بلبلة في صفوف المقاتلين التونسيين، والتفاف القوات الإسبانية حولهم من جهة المدينة' بالإضافة إلى أن جعفر آغا أطلق سراح الأسرى الأوروبيين بالمدينة، فاستولوا على القصبة وأغلقوا أبواب المدينة، ثم قاموا بإطلاق المدافع على المسلمين، وإزاء

---

1 مجهول: المصدر السابق، ص69.
[2]الفونص روسو: المرجع السابق، ص89
[3]نيقولاي ايفانوف: المرجع السابق، ص232.

Scanné avec CamScanner

ذلك قرر خير الدين التخلي عن الهجوم والانسحاب ليلا إلى بون (عنابة، وفي طريقه اعترضه الأعراب فكانت بينهم حرب شديدة تغلب فيها خير الدين عليهم وواصل طريقه إلى عنابة، الذي كان قد ترك فيها خمسة عشر سفينة، فلما علم شارلكان بذلك وجه إليه ثلاثين سفينة بقيادة أندري دوريا، بغرض الاستيلاء على عنابة فرماهم خير الدين بطلقات المدافع هذا ما دفع النصارى للعودة إلى تونس.[1]

وعلى إثر هذا النصر قامت البابوية في روما باحتفالات كبرى لوقوع تونس في يد العاهل المسيحي.

أما خير الدين بعدما قام بإصلاح بعض السفن أبحر من ميناء عنابة إلى جزيرة مايورقة الإسبانية فاستولى على جزيرة ماهون (Mahon)فخربها على آخرها، واستولى على 6000 أسير عاد بهم إلى الجزائر.[2]

استدعي خير الدين من طرف السلطان العثماني سليمان القانوني في أكتوبر 1535م ليشغل منصبا رفيعا في البحرية، وحل محله في الجزائر حسن آغا.

*-استباحة تونس للإسبان

أولاً: دخول الإسبان لتونس

---

[1] مجهول ، المصدر السابق، ص98

[2] نجيب دكاني: المرجع السابق، ص83

Scanné avec CamScanner

في 21 جويلية 1535م دخل الحسن الحفصي تونس رفقة الجيش الإسباني، ثم توجه إلى قصبة المدينة ونادى في الناس بالأمان،فصدقه عامة الناس وفي هذا الصدد يذكر الوزير السراج "كان الناس اطمأنت وانفتحت الأسواق ولزم كل صانع صنعته فبينما المسلمون في هذه الغفلة إذ دهمهم العدو فجأة ودفعت النصارى دفعة والأسواق منفتحة فنهبوها سبيا وقتلا، وفر المسلمون بعيالاتهم إلى ناحية زغوان.[1]

ويعود ذلك أن الحسن الحفصي دخل تحت حماية الإسبان، واتفق سرا مع شارلكان على إباحة مدينة تونس لهم لمدة ثلاثة أيام، في ذلك الحين أمر شارلكان جيوشه بنهب المدينة، فاستباحوها بالقتل والأسر والسلب حتى قيل أن عدد سكان تونس كان مائة وثمانين ألف قتيل منه الثلث وأسر الثلث ونجا الثلث، وراحت كل مدخرات تونس وخيراتها ونفائسها وأموالها ضحية الغدر والخيانة والنهب والسلب والقتل الذريع[2]، ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بهدم المساجد، وحرق الكتب النفيسة،التي كانت موجودة بجامع الزيتونة وبيعت بأرخص الأثمان ومزق أغلبها، فأحاطت الأوراق جميع أنحاء جامع الزيتونة حتى أن المرء لا تكاد تقع قدمه على غير الكتب.[3]

أما البدو فقد لعبوا دورًا في منتهى الحقارة والخسة، ذلك أنهم هاجموا ولاحقوا الأهالي التونسيين الذين تمكنوا من النجاة من المذبحة وتسللوا فرادى أو عائلات إلى زغوان، وفي

---

[1] محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، 3ج، تح: محمد الحبيب هلية، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1985م، ص205.

[2] أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، الشركة الوطنية، الجزائر، (د.س.ن)، ، ص233.

[3] محمد بن خوجة: صفحات من تاريخ تونس، تق وتح: حمادي الساحلي، الجيلاني بن الحاج يحي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1986م، ص298

Scanné avec CamScanner

الطريق كان البدو يكمنون لهم ويصطادونهم ويطالبونهم بدفع مبلغ ضخم من المال لافتداء أنفسهم يقارب ألف دينار، ومن لا يستطيع دفع هذا المبلغ اللامعقول كان يسلم للإسبان، فيحصل البدو على مكافأة لقاء ذلك.[1]

سميت هذه الأحداث بواقعة الأربعاء التي وقعت في الحادي والعشرين من جويلية 1535م.

لما رأى ملك تونس ذلك العبث والفساد توسل إلى الإمبراطور شارلكان بقصد الكف عن هذه الأعمال، والاكتفاء بالغنائم وأسر الرجال دون قتلهم، وقد صدر الأمر بتنفيذ ذلك، ولم يمت من النصارى على يد المسلمين سوى عدد قليل ولكن عددًا منهم مات أثناء التنازع فيما بينهم على الغنائم، وقتل عدد من النصارى الذين تمردوا في الحصن على يد إخوانهم في الدين بهدف انتزاع ما كان معهم من الثروات[2].

بعد أن أخضع شارلكان تونس لنفوذه سنة 1535م أمر بتشييد حصن منيع عظيم بحلق الواد، ولهذا الغرض أرسلت طلبية إلى صقلية لاستيراد المواد اللازمة للبناء وأمر بوضع أربعة آلاف من جنوده، ومن وجدوا في الحصن من تونسيين انهم أكثرهم بأنهم من أتباع رشيد وقتلوا، هذا التحصين ضمن بقاء الجيوش الإسبانية بالتراب الإفريقي ما يقرب أربعين سنة[3].

ثانيًا: معاهدة الاستسلام ونتائجها

---

[1] نيقولاي ايفانوف: المرجع السابق، ص235.

[2] مارمول كربخال: المصدر السابق، ج3، ص54.

[3] محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ماقبل التاريخ الى الاحتلال ، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة ، ط3، دار سراس للنشر ، تونس ، 1993، ص65.

Scanné avec CamScanner

-1معاهدة الاستسلام (06صفر942هـ/06أوت1535م):

بعد أن أتم الإسبان مجازرهم، دخل الإمبراطور شارلكان تونس متظاهرًا بمنع جنده من الاعتداء، وبإعطاء الأمان للناس فاستتب الأمن، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي، بعد أن دخل عليهم الرعب والهلع المقصودين حتى لا يرفعوا رؤوسهم بعد ذلك.[1]

استطاع شارلكان إرجاع الحسن الحفصي إلى عرشه بعد أن دخل تحت حمايته، فرض عليه معاهدة الاستسلام، في يوم السادس من أوت 1535م، والتي أقرت تبعية للإمبراطور شارلكان، كما أقر ذلك السلطان الحفصي مولاي الحسن في خطابه الذي قد وجهه للإمبراطور الإسباني فيما قبل، وقد تضمنت المعاهدة شروط قاسية ضد التونسيين، وضد السلطان الحسن الذي قبل بها، ومما جاء فيها:

(1إخلاء سبيل الأرقاء المسيحيين والإباحة لجميع المسيحيين بالاستيطان في إقليم تونس وإقامة شعائر دينهم بدون معارضة

(2أن يتنازل شارلكان عن مدائن بونة (عنابة)، بنزرت، حلق

(3أن يدفع له مبلغ اثني عشر ألف دوكا مصاريف الحملة.

(4أن يقدم له سنويا اثنى عشر حصانا ومثلها من المهارة العربية، علامة على امتنانه.

(5أن يضع فرقة من جيش الإسبان يخصص لها اثني عشر ألف دوكا تكاليف إقامتها

---

[1] محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص703.

Scanné avec CamScanner

(6أن يلتزم بعدم السماح للبحارة المسلمين بالرسو في الموانئ التونسية، وألا يدخل بلاده أحد من مهاجري الأندلس.

(7أن يسمح الملك الحفصي للإسبان بصيد المرجان بتونس.

(8أن يأتي إلى تونس قنصل وقاضي للبث في الخصومات بين المسيحيين.

(9أن يتعهد الإمبراطور بحماية التونسيين.

(10كما اشترط على الحسن الحفصي أنه لو خالف أحد شروط المعاهدة المبرمة بينه وبين شارلكان فإنه يدفع أول مرة 5000 دوكا، وفي الثانية 100000دوكا، أما إن خالف الأمر في المرة الثالثة فإن حقه في الملك يسقط.[1]

في 17 أوت 1535م غادر شارلكان شواطئ تونس، وبقيت حاميات إسبانية في حلق الواد وغيرها من المراكز الساحلية، وأبقى في تصرف مولاي الحسن مائتي إسباني، على أن تبقى تلك القوة في قصر القصبة لحراسة السلطان شخصيًا، وعين برناردو دي ماندوزا Bernando (Mandoza de) قائدا في حلق الواد وممثلاً لشارلكان في تونس، فكان هدفه الأول منصبا على بناء القلاع الإسبانية في حلق الواد وبنزرت وعنابة، وتدمير الأسوار التي كانت تحمي الأحياء المسلمة في تلك المدن التي أصبحت إسبانية.[2]

---

[1] لحسن قرود: المرجع السابق، ص180.
[2] نيقولا ايفانوف: المرجع السابق، ص237.

Scanné avec CamScanner

-2نتائج المعاهدة:

سيطرة الإسبان على المدن والسواحل التونسية.

بعدما أحكم شارلكان سيطرته على مدينة تونس عاد إلى معسكره القديم في قرطاجة، وأمر الأسطول الإسباني بالعودة إلى موانئه الأصلية في إسبانيا، أما هو فقد توجه للسيطرة على باقي المدن.[1]

تعتبر المهدية أول المدن التي توجه إليها شارلكان رغبة منه في السيطرة عليها، غير أن سوء الأحوال الجوية اضطرته لتأجيل تلك الحملة فتوجه إلى صقلية، حيث نزل في ميناء طراباني، وانتهز فرصة إقامته بذلك الميناء لتدبير الهجوم منه على مدينة المهدية على رأس خمسة آلاف رجل من قوات الإنزال، غير أن الرياح العاتية واضطراب البحر أحبطت مشروعه ولم يستطع الظفر بها في تلك السنة.

[1] الفونص روسو: المصدر السابق، ص91.

Scanné avec CamScanner

لقد أراد الإمبراطور شارلكان الاستحواذ على مدينة المهدية بأي شكل من الأشكال، هذا نظرًا لموقعها فهي الأقرب إلى صقلية، ولم تتح له الفرصة إلا سنة (946هـ/1539م)، حيث استطاع الإسبان إنزال حامية عسكرية بها، وذلك بطلب من سلطان تونس الحفصي للقضاء على ثورة داخليه ضده، فغضب السكان وثاروا لأنهم لم يرضوا بهذا الاحتلال فاضطرت الحامية على الانسحاب.

لقد نصت معاهدة الاستسلام بين الحسن الحفصي وشارلكان أن يتم التنازل للإسبان على مدينة بنزرت كما رأينا سابقا، لذلك أمر شارلكان قائده أندري دوريا بمهاجمتهم من جهة البحر، أما السلطان الحفصي فهاجمهم من جهة البر، فتم أخذ المدينة عنوة لأن الأهالي والعثمانيين المتواجدين في الحصن قد استسلموا من أول وهلة، استغل الحسن الحفصي الوضع فأنزل عقابه بالسكان الذين ثاروا ضده ثلاث مرات،[1] وفي الرسالة التي بعثها الدوق برناردو دي ماندوزا إلى الإمبراطور شارلكان (942هـ/1535م) يخبره فيها بأن السلطان الحفصي قد قام بهدم حصون بنزرت، وأن هذا التصرف قد أعجبه وكان يتمنى أن يتم هذا مع باقي المواقع البحرية لتونس، عندها لم يجد القراصنة ملجأ.

وما كاد خير الدين يغادر مدينة عنابة، بعد انسحابه الاضطراري من تونس سنة 1535م، ويعود إلى الجزائر من أجل مواصلة الجهاد وحمل الحرب إلى بلاد العدو، حتى بادر الإسبان بمهاجمة عنابة، التي كانت تابعة إسميا لسلطة بني حفص بتونس،[2] ولكن تنازل

---

[1] رحيمة بيشي: المرجع السابق، ص98.
[2] أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص239.

Scanné avec CamScanner

عنها سلطانها أبو الحسن الحفصي للإسبان بناءً على ما نصت عليه المعاهدة التي عقدت بين الملك الحفصي وشارلكان.

ويعود سبب اهتمام الإسبان بمدينة عنابة وتوجيه أنظارهم إلى موقعها الإستراتيجي حيث جاء في تقرير تجسسي موجه إلى الإمبراطور مؤرخ في شهر جويلية 1535م، يبين أهمية مدينة عنابة، يقول فيه صاحبه: "أن المدينة مثل بنزرت، لها وادي بإمكان المراكب الدخول فيه وقضاء فصل الشتاء، وأنها ذات موقع قوي يجب احتلالها"، هذا ما دفع شارلكان لإصدار أمر احتلال عنابة وكلف لهذا الغرض الماركيز دي موندیجار في 16 أوت 1535م وهو في طريقه لإسبانيا.

خلال شهر أوت من نفس السنة تحرك الدون ألفارو دي بازان (Don Alvaro de Bazane) الذي سبق موندیجار، ومعه خمس عشر سفينة فوصلها يوم 23 أوت 1535 متأخرًا بخمسة أيام بسبب هبوب رياح معاكسة لسفنه[1]، ظهرت السفن الأولى قبالة مدينة عنابة، وما إن تم الإنزال حتى هاجمهم الأهالي فأجبروهم على الخروج من الميناء، وفي 25 أوت وصل الجزء الأكبر من الأسطول الذي كان يقوده دي موندیجار[2]، وكان يحمل على متنه ثلاثة آلاف رجل تم إنزالهم بعيدا عن المدينة، حيث شكل الإسبان كتيبتين وتوجهوا إلى الحصن الذي تخلى عنه العرب، فاحتلوا القصبة والمدينة، وفي الأيام الثلاثة الموالية أنزلوا عتادهم ومؤونهم.

---

[1] عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص157

[2] صالح عبّاد: المرجع السابق، ص63.

Scanné avec CamScanner

ثم باشر الإسبان بالنهب والسلب ويروي مارمول كربخال في هذا الصدد" :عاثوا في تلك الجهات فسادًا يغيرون على أهلها من العرب والبربر ويغنمون منهم عددا من المواشي والعبيد وغير ذلك، واستمرت تلك الأعمال ما بين سبعة إلى ثمانية أيام، ثم قام دي موندیجار بمغادرتها بعد أن ترك فيها بناءًا على تعليمات الإمبراطور 200 جندي بالقصر، و600 جندي بالمدينة،وعين ألفارو قوميز (Alvaro Gomez) حاكما لعنابة، ووضع تحت سيطرته حامية إسبانية قدرت بألف من المشاة، وخمسة وعشرين من الفرسان.[1]

رغم ذلك لم يتمكن الإسبان من احتلال سوى مدينة عنابة ولم يستطيعوا احتلال أحوازها،لأن العرب الذين خرجوا من المدينة استقروا حولها محاصرين للإسبان، منتظرين وصول المدد من أجل مباشرة عملية إنقاذ مدينتهم[2]، قام هؤلاء العرب بمساعدة الأتراك العثمانيين على نصب الكمائن على أبواب عنابة ولكنهم فشلوا في هزم المسيحيين.[3]

سعى الإسبان للاحتفاظ بمدينة عنابة من خلال تعيين الموظفين والعسكريين، والإنفاق على تكاليف الجيش الإسباني بالمدينة، وكذلك عبر الأشغال التي ينبغي القيام بها وإنجازها لإبقاء الحصن بكل إمكانياته الدفاعية ضد أي هجوم للمسلمين عن طريق البر أو البحر.

بعد موت ألفارو قوميز أصدر الإمبراطور أمره بالتخلي عن ثغر عنابة وإحداث خروق في جدران الحصن، وهدم الأبراج التي في المدينة والحصن، ولكنهم ما لبثوا أن أصلحوها بسبب ما

---

[1] مارمول كربخال: المصدر نفسه، ج3، ص09.
[2] أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص240.
[3] مارمول كربخال: المصدر نفسه، ج3، ص09.

Scanné avec CamScanner

في هذا البلد من خيرات، ولما عجز ملوك تونس الدفاع عن هذه المدينة، غادرها الإسبان يوم 16 أكتوبر 1540م، فاستولى عليها الأتراك وعمروها وقاموا بتحصينها[1].

ب:**السيطرة على السواحل الحفصية**

ظلت مدن الساحل وكل الجنوب التونسي على سابق ولائها للباب العالي، لذلك كتب دي ماندوزا في 26 أكتوبر 1535م أن مدن سوسة والمهدية ومنستير وصفاقس وكل السواحل الممتدة جنوب قليبية كانت تؤيد العثمانيين، وتدفع له الجزية باسم السيد الأعظم، هذا ما دفع شارلكان لإصدار الأوامر من أجل السيطرة على هذه المدن.[2]

-القليبية :كانت من المدن الموالية للعثمانيين، لذلك كان بينها وبين الحسن الحفصي عداء شديد، فتوجه إليهم الإسبان بغرض السيطرة على المدينة فنهبوها ثلاثة مرات، في المرة الأولى دافع عنها أهلها ببسالة، وقتلوا أو جرجوا أشجع المهاجمين الإسبان، ولكن في المرتين الأخريين لم يظهروا مقاومة لأن المقاتلين من الأتراك وغيرهم انسحبوا من الحصن وتركوا الأهالي دون مدافع، فقتل ألف شخص، وأسر ألفا من الناس والأطفال، وسلمت المدينة للحسن الحفصي[3].

أما مدينة سوسة فقد ثار سكانها ضد سلطة الحسن الحفصي، لأنهم لم يغفروا له استنجاده بالنصارى لغرض استرجاع ملكه، فحملوا السلاح ضده، واستحوذ الأتراك عن

---

[1] **نفسه، ج3، ص09.**
[2] **نقولاي ايفانوف: المرجع السابق، ص ص 237-238.**
[3] **مارمول كربخال: المصدر السابق، ج3، ص64.**

Scanné avec CamScanner

مدينة سوسة، هذا ما دفع الحسن الحفصي لشن حرب ضدهم، فلما عجز عن طردهم منها استنجد بالامبراطور شارلكان، فكلف هذا الأخير سنة 1535م ماركي دوطيرنوف القيام بحملة ضد مدينة سوسة.[1]

فحضر لهذا الغرض أربعة عشرة سفينة بحرية، عشر منها في صقلية وأربعة من مالطة ومعها أربع سفن ضخمة كان على متنها ألفان من الجنود الإسبانيين، وبعض الجنود الصقليين، أما ملك تونس فقد قام بإرسال جيش عن طريق البر قوامه سبعة آلاف فارس من الأهالي و العرب وجعل والده على رأسهم[2]، دارت معركة شرسة بين الطرفين، استطاع الإسبان خلالها حصار المدينة مدة طويلة دافع أثناءها الأتراك العثمانيون والأعلاج دفاعا شديدا وذلك برمي الحصى وكتل الحجارة من فوق البرج، وقتلوا بذلك الدون دييكو دو كاستيليا Don Diko De ((Castilia قائد المعسكر و لوب دوميلو (Lope Domillo) قائد إحدى السفن الحربية المالطية وعدد من النبلاء والجنود، فاضطر النصارى للانسحاب بعد نفاذ ذخيرة الحرب والمؤونة[3].

بعد انقضاء عامين على وقوع تلك الحملة الفاشلة استطاع أندري دويا أن ينتقم لها بشدة، حيث ترتب على ذلك خضوع مدينة سوسة لسلطة الحسن الحفصي.

بعد احتلال تونس من طرف شارلكان، رفض أهل صفاقس الخضوع له، لأنهم كانوا موالين للعثمانيين، فجهز لهم أندري دوريا حملة تتضمن سفن حربية سريعة وسفن من نابولي

---

[1] الفونص روسو: المصدر السابق، ص91.
[2] مارمول كربخال: المصدر السابق، ج3، ص65.
[3] نفسه، ص66.

Scanné avec CamScanner

ومالطة وصقلية فجمع له ثلاث وأربعون سفينة حمل عليها جنود الإسبان والمشاة، استولى الإسبان على مدينة صفاقس وسلمت لملك تونس، لكن سرعان ما عاد سكان هذه المدينة للتمرد ،وتم طرد الموالين للملك، واستقبلت الأتراك العثمانيين.

أما بالنسبة لسكان مدينة المنستير فقد تمردوا على الحسن الحفصي، ومن أجل إخضاعها استولى عليها أندري دوريا سنة 1539م، وترك بها فرقة من الجنود الإسبان بأمر من الإمبراطور شارلكان، بقصد تعزيز شيعة ملك تونس، لكن هذه الحامية لم تكمل مهمتها في المنستير، وغادرت في (948هـ/ ماي 1541م)، مما جعل العثمانيين يبسطون نفوذهم عليها مرة أخرى[1].

ومما سبق نستنتج:

-كانت هناك العديد من الأسباب دفعت خير الدين لتوجيه حملة ضد تونس أهمها الموقع الاستراتيجي واستنجاد الرشيد به.

-شن خير الدين حملة على تونس سنة 1535م وتمكن من السيطرة عليها بسهولة وألحقها بالدولة العثمانية رغم رفض الحسن الحفصي وبعض الأعيان.

-لم تمض سنة على جعل تونس إيالة عثمانية حتى جاء النصارى بقيادة شارلكان سنة 1535م، وجعلوها محمية إسبانية.

[1] رحيمة بيشي: المرجع نفسه، ص103

Scanné avec CamScanner

-نصت معاهدة الاستسلام التي تم توقيعها بين الحسن الحفصي وشارلكان على شروط قاسية سواءً للحسن الحفصي أو لتونس، ولكن الحسن قبل بها طمعا في استرجاع عرشه.

-لم يقبل أهل تونس بإعادة الحسن الحفصي إلى العرش فقامت العديد من الثورات في بلدان مختلفة، المهدية، بنزرت، عنابة، صفاقس...فدخلوا في حروب مع الحسن الحفصي الذي كان دائما يستنجد بالنصارى ضد أبناء جلدته.

-قامت ثورات وتمردات ضد الحسن الحفصي، منها انفصال الشابيين في القيروان، فوجه إليها الحسن الحفصي أربع حملات، باءت كلها بالفشل، كذلك تمرد عليه ابنه أحمد الذي استغل غياب والده واعتلى العرش.

-قام أحمد ابن الحسن الحفصي بالعديد من التنظيمات بقصد السيطرة على تونس.

-عمل أحمد الحفصي على توثيق صلة العلاقة بينه وبين الحاكم التركي في طرابلس الغرب "درغوث باشا" وذلك نظرا للمصالح المشتركة بينهما والمتمثلة في القضاء على الشابيين المستولين على القيروان ومواجهة الاحتلال الاسباني، هذا ما سوف نفصله في الفصل الموالي.

ملخص:

نلخص في نهاية هذا الدرس الى أن الاسبان بقيادة شارلكان وظفوا كل ما لديهم من قوة من اجل استعادة تونس مستغلين علاقتهم بالحسن الحفصي ، وكذا مسألة بقاء الرشيد في اسطنبول مما جعل الاهالي لايثقون في خير الدين ، وبذلك

Scanné avec CamScanner

تمكن الاسبان من السيطرة على اغلب المدن التونسية ، ان فرضوا سلطانهم على العباد والبلاد.

مصادرومراجع الدرس :

1. صلاح العقاد: المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر الجزائر، تونس، المغرب الأقصى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط6، مصر، 1993م.
2. زهراء النظام: العثمانيون والصراع المسيحي الإسلامي في غرب المتوسط في العثمانية والعالم المتوسطي مقاربات جديدة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 109، منشورات كلية الأدب، الرباط، 2003م
3. عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة الإسلام مفترى عليها، 4ج، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2004م.
4. ناصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب العثمانية، الجزائر، تونس، طرابلس الغرب، البصائر للنشروالتوزيع، ط2، الجزائر، 2014م،
5. عبد المنعم الجميعي: الدولة العثمانية والمغرب العربي، دار الفكر العربي للطبع والنشر، مصر، 2006م
6. إلهام يوسف، ولاء علي صقر: الصراع الإسباني العثماني على تونس (941- 982هـ/1534-1574م)، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية ، سلسلة الأدب ،والعلوم الإنسانية ،ع 5 ، (د، م، ن)، 2018/11/22م.
7. محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان حقي، دار النفائس، ط1، بيروت، /1981م.

Scanné avec CamScanner

8. كربخال مارمول : إفريقيا،تر: محمد حاجي،محمد الأخضر وأخرون،3ج،دار نشر المعرفة، الرباط،(د،س،ن)،ج3

9. نيقولاي ايفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية (1516-1574م)، تع: يوسف عطا الله، دار الفارابي، ط2، بيروت، لبنان، 2004م،

10. أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، 8ج، الشركة الوطنية للنشروالتوزيع، الدار التونسية للنشر، الجزائر، تونس، 1974م، ج2.

11. مجهول: غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتع: نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية، الجزائر، 1353هـ/1934م

12. سعيد أحمد برجاوي: الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1993م،

13. عبد القادر فكاير: الصراع الجزائري الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: جمال قنان، جامعة الجزائر، الجزائر، 2001/2000م،

14. محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، 3ج، تح: محمد الحبيب هلية، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1985م،

15. أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، الشركة الوطنية، الجزائر، (د.س.ن).

16. محمد بن خوجة: صفحات من تاريخ تونس، تق وتح: حمادي الساحلي، الجيلاني بن الحاج يحي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1986م

Scanné avec CamScanner

17. محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ماقبل التاريخ الى الاحتلال ، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة ، ط3، دارسراس للنشر، تونس ، 1993

الدرس السابع :الصراع العثماني الإسباني على البلاد التونسية ما بين 1550-1574م.

مقدمة :

تعتبر هذه المرحلة من العلاقات التونسية الإسبانية من أهم المراحل التاريخية لكلا البلدين، لانّهما سيعرفان عديد التغيرات التي تؤثر على سير الأحداث في الحوض المتوسط، الذي يشهد صراعاً مريراً بين الدولة العلية العثمانية والإمبراطورية الإسبانية التي عملت جاهدة لوضع حد للحروب الإيطالية خدمة لمصالح الدول الأوروبية التي استشعرت الخطر العثماني، وقد توجت تفاهمات الأوروبيين بصلح كوكتا مبرسيس سنة1559م، الذي أنهى الصراع بين أسرتي الهابسبورغ [1]والفالوا، لتتفرغ بعدها إسبانيا لمواجهة العثمانيين بمساعدة الدول الأوروبية، إلاّ أنّ الملاحظ أنّ الصراع بين الدولتين العثمانية والإسبانية سينحصر بالخصوص على تونس والجزائر وطرابلس الغرب اللتان ستتحملان المسؤولية في الدفاع عن بلاد المغرب ضد إسبانيا.

1-محاولة الجزائريين تحرير البلاد التونسية سنة 977هـ/1569م.

منذ سنة 1535م ظلت تونس تحت الحماية الإسبانية إلى غاية سنة 1568م، تاريخ تولي علج علي [2]حُكم إيالة الجزائر، وفي هذه السنة راسله أعيان مدينة تونس لإنقاذهم من

---

1 وهي من أكبر الاسر المالكة في أوربا من أصل الماني ،وتشتهر كونها من أهم مصادر المنتخبين الاباطرة في أوربا لحكم الامبرطورية الرومانية المقدسة ،وانقسمت في القرن السادس عشر الى قسمين اسرة هابسبورغ الاسبانية الكبرى واسرة هابسبورغ النمساوية الصغرى .

2 العلج علي : يدعى جلبي كرد أو علي أصله إيطالي، وقع في أسر المسلمين أثناء واحدة من الحملات التي نظمها خير الدين ضد جنوب إيطاليا ما بين 1524-1528م،بعد إسلامه أطلق عليه أولوج علي، وخلال فترة وجيزة ارتقى إلى مناصب

Scanné avec CamScanner

حكم الإسبان ومولاي أحمد من بينهم الوزير المقرب للسلطان الحفصي أبي الطيب الخضار الذي أحسّ بالخديعة من سلطانه[1]، إلاّ أنّ اشتغال علج علي بتدعيم الثورة الموريسكية منعه من تلبية طلبهم على الفور.[2]

ومع استمرار الثورة الموريسكية سنة 1569م، إلاّ أنّ علج علي استغل العديد من الظروف التي كانت في صالحه:

-اشتغال الإسبان بالثورة الموريسكية المشتعلة.

- تخوف القادة الإسبان من هجوم محتمل من طرف الدولة العلية وإيالة الجزائر، خاصةً وأنّ هذه الأخيرة كانت مشاركة بصفة مباشرة في الثورة الموريسكية.

- تأزم العلاقة بين السلطان أحمد الحفصي والتونسيين، انقلب السلطان أحمد على والده مولاي الحسن وفقئ عيناه حسب رواية جون وولف.[3]

- تململ السكان المحليين من وجود الحامية الإسبانية بحلق الوادي.

- إهمال الحامية الإسبانية الموجودة بحلق الوادي من طرف الملك الإسباني والقادة العسكريين المنشغلين بالثورة الموريسكية.

كان هناك عدد كبير من السكان المحليين في تونس يرغبون في التخلص من حكم أحمد الحفصي، لذلك اتصل أعيان المدينة بعلج علي طالبين منه مساعدتهم في القضاء على هذا

رفيعة وعلت مكانته، حيث عين القلج علي باشا واليا على مدينة تلمسان ، وبفضل ذكاءه الفطري ترقى بسرعة حتى أصبح قبطان لسفينة حربية، وما لبث أن حظي بثقة درغوث باشا، حيث عينه في 1556م قائدا على جربة، وبعد وفاة درغوث 1565م، عين واليا على طرابلس، وفي 1568لقب بايلرباي، وفي عهده كثفت البحرية الجزائرية نشاطها، حيث كان يهدف إلى تحرير بلاد المغرب من بقايا الإسبان.

[1] عبد الجليل التميمي: رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية المغربية في القرن 16عشر،م ،ج ، ت، ع29، ص 94،

[2] ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 18.

3 جون وولف ، المرجع السابق ،ص85

Scanné avec CamScanner

المستبد، ومع حلول سنة 1569م جاءت الفرصة المواتية لعلج علي، حين عاود سكان وأعيان تونس مراسلته لذلك قرر الاستجابة لهم عندما أدرك أنّ ثورة البشرات مآلها الفشل[1]، ففي شهر أكتوبر سنة 1569م غادر علج علي الجزائر متوجهاً إلى تونس على رأس 5ألاف مقاتل وانضم إليه الكثير من المتطوعين من منطقة القبائل وقسنطينة وعنابة وبلغ عددهم 6ألاف متطوع مدعمين بـ 10 مدافع.[2]

بمجرد ما علم السلطان التونسي بخبر قدوم علج علي جهز جيشه المقدر بحوالي 30ألف مقاتل لمواجهة الجيش الجزائري، الذي التقى معه في مدينة باجه[3]، ومع اشتداد المعارك انحاز عدد كبير من جيش مولاي أحمد إلى الجيش الجزائري[4]، مما كان له انعكاساً على سير المعارك التي آلت نهايتها لصالح الجزائريين، الذين أرغموا مولاي احمد على الفرار متوجها نحو تونس التي وجدها مغلقة في وجهه [5]،ولهذا اتجه صوب الحامية الاسبانية بحلق الوادي ومعه عائلته وبعض اتباعه ،مثقلين بالاموال والاثاث ،الا أنه في الطريق اعترضه الاعراب فنهبوا وسرقوا موكبه ، وبتاريخ 15 جانفي 1570 دخل الجيش الجزائري بقيادة العلج علي مدينة تونس دون مقاومة تذكر ،وأعلن اهل المدينة واحوازها الولاء والطاعة له ،واعلنت الخطبة باسم السلطان العثماني سليم الثاني (1566-1574)وبذلك عادت البلاد التونسية لتكون ضمن الولايات التابعة للدولة العثمانية.

وتميز حكم العلج علي في تونس باللين في معاملته للسكان والتقرب منهم خاصة وانه طمأنهم على اموالهم وانفسهم واعراضهم وممتلكاتهم ، ثم اسدى اوامره لتنظيم البلاد ونشر الامن والاستقرار بها ، ثم قر العودة الى الجزائر تاركا وراءه الحاكم رمضان باشا ليرعى

---

[1] فكاير عبد القادر: المرجع السابق، ص 165.

[2]Haerdo(F.D), Histoire....,op,cit, p406

[3] ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 163

[4]– DE Gramment, op, cit,p 107.

[5] ابن أبي الضياف ، المصدر السابق ،ج5،ص 18

Scanné avec CamScanner

شؤون البلاد التونسية وترك حامية عسكرية تقدر ب5الالاف جندي لحماية البلاد داخليا وخارجيا .[1]

رغم تحرير مدينة تونس من الاحتلال الإسباني، إلاّ أن عدم تحرير حلق الوادي أبقى البلاد التونسية تحت رحمة التهديد المسيحي المستمر، مثلما كان حادثاً في مرسى الكبير ووهران، هذا ما جعل البلدان المغاربية غير مكتملة السيادة، وقد لعبت ظروف الدولة العلية العثمانية المنشغلة بحروبها الأوروبية وتدعيم الثورة الأندلسية والصراع ضد الصفويين في تأخير التحرير النهائي لتونس.

2-حملة دون خوان النمساوي على تونس سنة 981هـ/1573م.

تعتبر معركة الليبانت التي جرت وقائعها بين الأسطول العثماني والمسيحي في 07أكتوبر1571م من أهم المعارك البحرية عبر التاريخ في الصراع الإسلامي المسيحي ويعدها الكثير من المؤرخين بداية نهاية الأسطول العثماني لأنّها كانت حداً فاصلاً بين مرحلة القوة والبداية الضعف، وأمام الانهيار شبه كلي للأسطول العثماني بعد الخسائر الفادحة التي تكبدها في هذه المعركة حاولت إسبانيا استغلال هذه الأوضاع من أجل إعادة بعث حلم توسيع الإمبراطورية المقدسة وكانت البداية من الحلقة الأضعف في بلاد المغرب تونس التي كانت بها حامية إسبانيا متركزة بحلق الوادي.

وبعد أن هيأت معركة الليبانت الظروف اللازمة للملك الإسباني فليب الثاني من أجل القيام بالحملة أمر بالبدء وإعداد حملة ضخمة أوكلت مهمة قيادتها لأخيه دون خوان النمساوي الذي وجد الفرصة مناسبة لتعزيز مكانته داخل البلاط الحاكم الإسباني خاصةً وأوروبا عامة؛ بعد أن استطاع هزيمة العثمانيين في معركة الليبانت، بالإضافة إلى محاولة تحقيق مجد آخر باحتلال تونس يضاف إلى أعماله السابقة، مدعوماً بقبول محمد بن الحسن

[1] عبد الجليل التميمي ، المرجع السابق ،ص95

Scanné avec CamScanner

اقتسام حكم تونس معه، بعد رفض مولاي أحمد الحفصي هذا العرض في مقابل إعادته لحكم البلاد مفضلاً خلع نفسه واللجوء إلى صقلية سنة 980هـ/1572م أين بقي بها إلى غاية وفاته سنة1573م[1] ليحول جثمانه إلى تونس أين دفن في زاوية بني قاسم الزليجي.[2]

انطلقت الحملة يوم 17أكتوبر من جزيرة صقلية باتجاه مدينة تونس التي وصلها الأسطول يوم 10أكتوبر 1573م وكانت الأرمادة الإسبانية مكونة من:

-13ألف جندي إيطالي.

- 9ألاف جندي إسباني.

- 5ألاف جندي ألماني[3]، بالإضافة إلى العديد من المتطوعين من مالطا والعديد من الدويلات الإيطالية الأخرى التي كانت تسارع دائماً للمشاركة في مثل هذه الحملات ضد بلاد المغرب.

وصلت الحملة الإسبانية إلى حلق الوادي، أين تجمعت وحدات الأسطول من كل أنحاء اوروبا، وكانت خاتمتها السفن الإسبانية، لتنطلق باتجاه مدينة تونس التي استولى عليها الإسبان دون مقاومة تذكر، بسبب قلة جنود الحامية العثمانية المقدر عددهم بحوالي 2000جندي فقط بقيادة رمضان باشا الذي لم يستطع الوقوف في وجه القوات المسيحية التي طاردته إلى غاية مدينة الحمامات، التي رفض أهلها استقباله وجنوده وأغلقوا دونهم الأبواب[4]، هذا ما اضطرهم للتوجه إلى مدينة القيروان؛ وأثناء سيرهم كانت تحدث معارك عنيفة بين الطرفين مالت كفتها لصالح العثمانيين وحلفائهم من التونسيين، وأمام خسائرهم

---

[1] شوقي عطاالله الجمل: المرجع السابق، ص 108.

[2] حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 108.

[3] E.guellouz,A , masmoud, M ,smida, Histoire de la Tunisie, société tunisienne de diffusion,Tunis,1983, p 18.

[4] ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 22.

Scanné avec CamScanner

المتتالية لم يجد الإسبان إلاّ السكان العزل بمدينة الحمامات للانتقام منهم كما جرت العادة في كل حملة يقومون بها ضد السكان المغاربة، وذهب ضحية هذه الأعمال الكثير من الرجال والنساء والأطفال، وكان خاتمة ذلك نهب المدينة1، كما قام الجنود الإسبان بتخريب شوارع تونس، حيث ظلوا لأيام عدة ينشبون المنازل ويحفرون الساحات والسطوح، حتى لم يبق بيت سليماني في المدينة، وحطموا الأثاث ومعالم الزينة والزخرفة وباعوا سجاجيد القيروان والأقمشة والأواني الفاخرة بأبخس الأثمان[2]،ولم يكتفوا بهذا بل تجرأوا على جامع الزيتونة بربط خيولهم هناك ، ورميهم للكتب العلمية في الطرقات تدوسها خيول عساكرهم ، فلقد عانى سكان تونس من ظلم الإسبان حتى خرجوا إلى الجبال والغابات والبوادي ونالهم الجوع والعطش.أمّا رمضان باشا وقواته فواصلوا مسيرهم باتجاه القيروان، أين استقبلهم أهلها برفقة حيدر باشا بحفاوة وترحاب كبيرين.[3]

وقد نقل لنا ابن أبي دينار نصاً يعبر حقيقة عن حالة الرعب والخوف التي عاشها سكان تونس، مستذكرين في ذلك ما حدث لهم سنة 1535م عندما قام الإسبان بهتك الأعراض ونهب المدينة، وقتل الأبرياء رجالاً واطفالاً وفي ذلك يقول:<< ...فلماً علم أهل تونس بمجيئه هربوا من البلد خيفة من هول الأربعاء وهربوا إلى ناحية الرصاص واختفوا هناك في الدواميس، وهذه الواقعة يعبر عنها بمخطرة الدواميس...>>.[4]

ولمّا ظفر دون خوان بتونس واستقر له الأمر نهائياً قام بتنصيب مولاي أحمد الحفصي سلطاناً وفرض عليه شروط مذلة وقاسية، وبذلك أصبح فاقداً للشرعية لأنّه نُصب من طرف الإسبان، وفاقداً أيضاً لصلاحياته كحاكم لأنّ دون خوان جرده من كل سلطة، وجعله تابعاً لعرش الملك الإسباني، وأمام هذه الوضعية المخزية قرر مولاي أحمد التنازل

---

1 Ernest Mercier, op, cit, p 115.

2 نيقولا ايفانوف ، امرجع السابق ،ص 247

3 ابن أبي الدينار : المصدر السابق، ص 167.

4نفسه، ص 167.

Scanné avec CamScanner

عن الملك لأخيه محمد الذي قبل أن يخضع للإسبان ويشاركه في تولي السلطة سيربيوني غابريال (Gabriel serbelloni)[1]، ثمّ قام دون خوان بإنشاء قلعة الباستيون وتحصينها وأسكن فيها الجنود الإسبان وزودها بجميع المنشآت الضرورية.[2] وقد بنى هذه القلعة خارج باب البحر من مدينة تونس على شكل مدينة أوربية أطلق عليها اسم شيكلي عمرها وأسكنها الإسبان[3]، وهي تحتوي على أحياء متميزة للإيطاليين والإسبانيين وبناءات من الخشب وآبار مياه ومخازن للمؤون ومطاحن للقمح ومعامل للحدادين ويضاف إلى هذا وجود المستشفى و الصيدلية والكنيسة، وهذه القلعة تبعد حوالي 150 أو 200من سور المدينة وهي أكبر من قلعة حلق الوادي وبها 6أبراج[4] ،وكان الدون خوان يطمح لتنصيب نفسه ملكا على هذه القلعة وهو ما أدخل الرعب في نفسية الملك .

بعد الانتصارات المتتالية التي حققها دون خوان النمساوي خاصةً في الليبانت وتونس وفي العديد من المعارك في عرض البحر ازدادت طموحاته وأطماعه في تأسيس مملكة خاصة به في المتوسط بدعم من الكنيسة البابوية، هذا ما أدخل الخوف والرعب في نفسية الملك فليب الثاني الذي خاف أن ينفرد دون خوان بحكم تونس ويجعلها مملكته المفترضة، لذلك وجه له الأوامر بالعودة فوراً إلى إسبانيا، فما كان من دون خوان إلاّ تلبية الطلب فوراً والعودة إلى إسبانيا تاركاً وراءه حوالي 8000جندي يقودهم غبريال سربيوني للمحافظة على المواقع المحتلة.[5]

بهذه الخطوة المميزة استطاع دون خوان النمساوي طرد العثمانيين من مدينة تونس التي دانت لهم نهائياً، بالرغم من وجود سلطة محلية ممثلة في محمد الحفصي، الذي كان حاكماً صورياً لا يملك من الأمر شيئاً سوى لقباً شرفياً يساعده في الاستئثار ببعض مزايا الحكم؛ الذي كان بيد سربيوني غبريال، وبذلك أصبحت تونس مقاطعة إسبانية مثلها مثل سردينيا

---

[1] فكاير عبد القادر: المرجع السابق، ص 116.

[2] ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 22.

[3] رحيمة بيشي ، المرجع السابق ،ص141

[4] عبد الجليل التميمي ، المرجع السابق ، ص ص 103-104

[5] عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 245.

Scanné avec CamScanner

وصقلية ونابولي...، إلاّ أنّ سكانها كانوا مسلمين تواقين لمن ينقذهم من هذا الوضع الذي آلوا إليه، ولم يكن لهم من مخلص إلاّ سلاطين الدولة العلية الذين تحملوا على عاتقهم مسؤولية الدفاع عن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

3- الفتح العثماني لتونس سنة982هـ/1574م.

زادت حدة الصراع العثماني الإسباني على تونس، لأنّها المنطقة الوحيدة ببلاد المغرب التي بقيت تحت سلطة الإسبان مباشرة بالإضافة إلى وهران والمرسى الكبير، وقد تحملت الحامية الإسبانية بحلق الوادي عبئ المواجهة ضد إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب، التي كانت تسعى بكل قوة لضم تونس مثلما فعل علج علي سنة 1569م، ليعاد احتلالها مرةً أخرى سنة 1573م من طرف دون خوان النمساوي، الذي لم يهنئ كثيراً بهذا الانتصار الدي لم يدم إلاّ بضعة أشهر، ليقرر السلطان العثماني سليم الثاني فتحها وضمها نهائياً لممتلكات الدولة العلية، وقد أوكلت هذه المهمة الجسيمة لعلج علي باشا الذي نال ثقة السلطان مباشرة بعد معركة الليبانت التي أبلى فيها البلاء الحسن.

تحمل علج علي باشا والعديد من قادة الأسطول العثماني المسؤولية الكاملة في تحرير تونس، والتي حاول العديد من البحارة العثمانيين تحقيقها مثل خير الدين ودرغوث وسنان باشا وحيدر باشا وغيرهم، تدفعه في ذلك العديد من الأسباب.

3-1- أسباب الفتح العثماني لتونس.

رغبة السلطان سليم الثاني في فتح تونس ، ذلك أن الباب العالي أصر على فتح تونس وضمها نهائياً للدولة العلية خاصةً بعد ان وجهت العديد من الفرمانات إلى حكام الجزائر، طرابلس الغرب، القيروان تطلب منهم الاستعداد لتحرير تونس؛ الهدف الاول للعثمانيين في ذلك الوقت.

Scanné avec CamScanner

تخفيف الضغط على الإيالة الجزائرية خاصة وأن تونس شكلت عبئاً ثقيلاً على الجزائر، لأنها تحملت المسؤولية في تحريرها، فكانت القوات الجزائرية في كل مرة تدخل في مواجهة الإسبان المتمركزين في تونس، لذلك أرادت الدولة العلية وضع حد لهذه المواجهات نهائياً ولا يتأتى لها ذلك إلا بتحرير تونس وإلحاقها بالجزائر.

ربط ممتلكات الدولة العلية ببعضها البعض فكانت تونس تمثل حجر عثر في وجه توحيد إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب وربطهم بممتلكات الدولة العلية بمصر خاصةً والمشرق الإسلامي عامةً، ولذلك أرادت تحرير تونس لتستطيع ربط ممتلكاتها ببعضها البعض.

سعي السلطان العثماني إعادة الاعتبار للأسطول العثماني الذي تضرر كثيراً في معركة اليبانت، مبرزاً أن الأسطول العثماني مازال قادراً على حماية الدولة العلية، وما الحملة على تونس إلاّ دليلاً قاطعاً على قدرته في مواجهة أعدائه، بالرغم من أنّ الأسطول تلقى ضربة موجعة في هذه المعركة، إلاّ أنّها لم تكن لتشل قدراته على مواجهة الأعداء المسحيين.[1]

الوصول الى تونس يجعل من العثمانيين يقطعون قطع الطريق على إعادة التحالف الإسباني الحفصي مرة أخرى مثلما حدث سنة 1535م، والذي دام حوالي 16سنة خلالها الرعية بالبلاد التونسية الذل والهوان، لذلك قرر السلطان سليم الثاني وضع حد لهذه الوضعية الكارثية، وعدم ترك تونس خارج نطاق السيطرة العثمانية.[2]

حاول السلطان العثماني استغلال تقدم حيدر باشا بقواته بالموازاة مع تقدم مصطفى باشا حاكم طرابلس الغرب باتجاه مدينة تونس لتحريرها، وقد التقت قوات الطرفين بمدينة المحمدية أين بدأ المواجهة مع القوات الإسبانية، وفي هذه الأثناء ومن محاسن الصدف انّ ذلك تزامن

---

[1] جون وولف: المرجع السابق، ص 92.

[2] عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 246.

Scanné avec CamScanner

مع قرار السلطان العثماني فتح تونس، ولذلك ولما سمعا بهذا الخبر زادت عزيمتهما وقرّرا مواصلة هذه العملية.[1]

اغتنام فرصة الأوضاع الداخلية لإسبانيا خاصة وأوروبا عامة والتي عرفت نهاية الأسرة الحاكمة في البرتغال دون ترك وريث شرعي، لذلك استغل فليب الثاني هذه الفرصة واستولى على الحكم، وكلف دون الألب بقتال المعارضين له، خاصةً وأنّ النبلاء اشتكوا من تهميشهم بعد وعدهم فليب الثاني باحترام القوانين البرتغال كما اشتكوا أيضاً من زيادة الضرائب عليهم، هذا وقد رفض البرتغاليون الموجودون في العالم الجديد وغيرهم الاندماج مع اسبانيا، خاصة عندما تأكدوا أنّ الإسبان لا يمكنهم مساعدتهم، ومع ذلك تمت الوحدة الإيبيرية بالرغم من هذه الاعتراضات، وبذلك توسعت ممتلكات الإمبراطورية الرومانية من لشبونة إلى بروكسل إلى الدويلات الإيطالية وصولاً إلى العالم الجديد، وكان لها مليشيات كاثوليكية، واستطاع أحد نبلاء نافار إنشاء جماعة اليسوعيين(الجزويت) وعمل على نشر المسيحية على المذهب الكاثوليكي وأعلن الكفاح ضد الهراطقة(بروتستانت)، تدعمه في أعماله هذه القيادة الإسبانية[2]، هذا ما ولّد العديد من المشاكل داخل إسبانيا وخارجها كانت قيادة الدولة العلية تعلم بها فأرادت استغلال هذه الأوضاع لصالحها وتسارع لفتح تونس.

من الاسباب أيضا تطلع التونسيين لنصرة السلطان العثماني لهم ، خاصة وأن الحامية الإسبانية الموجودة بحلق الوادي على معاملة السكان بالظلم والجور وانتهاك الحرمات ونهب الخيرات، مدعمة في ذلك من طرف الأسرة الحفصية الحاكمة صورياً، ونتيجة لهذه الأفعال كان أغلبية السكان ينتظرون الفرصة المواتية لطرد الإسبان وعملائهم، هذا التململ الذي أبداه السكان تجاه هذه السلطة الجائرة لم يكن ليستمر طويلاً[3]، لأنّ السلطان العثماني أدرك هذه

---

[1] حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 109.

[2] جلال يحي: أوروبا في العصور الحدية "الفجر"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، مصر، 1981، ص ص 358،359.

[3] حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 109.

Scanné avec CamScanner

الحقيقة عن طريق عيونه الذين نقلوا له تطلع السكان التونسيين لنصرتهم وتخليص بلادهم من هذه الوضعية التي آلت إليها.

كما لاننسى عملت إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب لزيادة الضغط على المحتلين الإسبان بتونس، ذلك أنّ مصطفى باشا بدأ الزحف من جهة الجنوب باتجاه مدينة تونس يؤازره في ذلك حيدر باشا حاكم القيروان[1]فيما حاول حاكم الجزائر رمضان باشا الضغط على تونس من جهة الغرب، وبذلك زاد ضغط حكام الإيالتين على الإسبان طمعاً في نجدة سريعة من السلطان العثماني.

3-2-تجهيز الحملة العثمانية وسيرها.

أ-تجهيز الحملة:

بعد أن توفرت العديد من الأسباب والظروف قرر السلطان سليم الثاني القيام بتجهيز حملة عسكرية باتجاه تونس، لذلك بدأ في تجهيز الأسطول الهمايوني وعين على رأسه علج علي باشا بمساعدة سنان باشا، وبعث في طلب المساعدة من حاكم الجزائر رمضان باشا وحاكم القيروان حيدر باشا وحاكم طرابلس الغرب مصطفى باشا، بالإضافة إلى حاكم الجزائر السابق أحمد باشا، فيما اختلفت المصادر العربية الإسلامية في عدد قطع الأسطول بين مبالغ ومنصف في ذلك فقد ذكر علي بن محمد التمكروتي أنّ عدد القطع الأسطول كان حوالي 450سفينة، وفي ذلك قال: << ...ثم إن الترك انتدبوا وخرجوا إليها فجاؤوهم في أربعمائة وخمسين سفينة من القسطنطينية...>>[2]، فيما ذكر محفوظ مقديش أنّ قطع الأسطول كانت حوالي1500سفينة، وفي ذلك قال: << ...فشحنوا مائة غراب وعدة كثيرة

---

[1] محمد الهادي شريف: المرجع السابق، ص 66.

[2] علي بن محمد التمكروتي : النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم وتحقيق، عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، المملكة المغربية،1423هـ/2002م، ص 42.

Scanné avec CamScanner

من شونات[1]المراكب الكبار تحمل الأشغال والمدافع، قيل كان عدة سفن ألفاً وخمسمائة سفينة...>>[2]، أما المصادر الأجنبية على حسب دراسة طاهر تومي تذكر أرقام مختلفة تماما عما ذكرته المصادر العربية، فقد ذكر هايدو أن عدد قطع الأسطول العثماني 250 سفينة حربية من نوع غاليرة و40سفينة لنقل الجنود ،أما برودال أورد أن عدد قطع الأسطول كانت 250 سفينة، والملاحظ أن المصادر والمراجع الأجنبية تقاربت في إعطاء العدد وهو ما نأخذ به، وخاصة أن المصادر الأجنبية غالبا ما تحاول تضخيم مثل هذه الأحداث لإعطاء مصداقية أكبر للجانب الأوروبي، أما في هذه الحالة لم تستطع إعطاء أكثر من هذه الأرقام[3]، وخلال سير الأسطول العثماني إلى تونس استولى في طريقه على سفينة مسيحية وأخذ مابها من غنائم، ومن هناك قطع الأسطول عرض البحر في 5 أيام، وفي هذا الوقت وصل حيدر باشا وقوة من الجزائريين بقيادة رمضان باشا، وقوة من طرابلس بقيادة مصطفى باشا ومتطوعون من مصر[4]،إلى تونس قبل الأسطول العثماني،وقاموا بقطع طرق التموين على الإسبان واستولوا على عيون الماء والآبار.. ،و في 12جويلية 1574 وصل الأسطول العثماني إلى تونس، وأنزل قواته بالمنطقة التي تمركزت بها القوات العثمانية التي سبقته هناك والجدير بالذكر أنه عند وصول القوات إلى تونس لقيت ترحابا ومساعدة كبيرة من الأهالي كمنح المواد الغذائية والجمال والحمير[5]،وفي اليوم الموالي وجه القائد سنان باشا الجيوش القادمة من البر بمحاصرة تونس ، وجعل حيدر شيخ القيروان قائد للعمليات ،في حين كلف أحمد عرب باشا والعلج علي بشن الهجوم على حلق الوادي ، فقد عمل سنان

---

[1] وهي كلمة من اللهجة المصرية تعني السفينة الكبيرة المعدة للجهاد البحري، وهي نفس السفينة من نوع غالير.

[2] محفوظ مقديش: المصدر السابق، ص 71.

3طاهر تومي : المرجع السابق ، ص ص 300-301

4نبيل عبد الحي رضوان ، المرجع السابق ،ص278

[5] محمد سي يوسف: قليج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: أبو القاسم سعد الله، جامعة الجزائر، 1988م،، ص155

Scanné avec CamScanner

باشا على تنسيق الجهود بين القوات البرية والبحرية ،وضبط الخطط اللازمة لمهاجمة حلق الوادي وتونس، قسم يحاصر تونس وقسم يهاجم حلق الواد، لتبدأ المعارك يوم 17جويلية [1].

أما الاسبان فإن الكونت سيربيوني الذي كان يقاسم محمد الحفصي حكم تونس عندما علم بنزول الجيش العثماني إلى تونس قام بإغاثة النقاط الإسبانية الأكثر تعرضا للتهديد، فأمر بإجلاء قواته عن مدينة بنزرت ودفع بحاميتها إلى حلق الواد[2]، كما تمت مراسلات بين الدون خوان والدون غارسيا دي توليدو نائب ملك نابولي، اللذان تبادلا الآراء حول الأوضاع في تونس وقد اقترح الأخير تحطيم حصني تونس وشيكلي الواقع في رأس قرطاج[3].

أشرف سيربيوني على تنظيم الدفاعات، وكانت موزعة كمايلي:

- حصن حلق الوادي: تحت قيادة ديبور توكاريرو ومعه أربع كتائب عسكرية من الإسبان وخمسة من الإيطاليين.
- حصن الباستيون :بقيادة الدون زاموغيرا
- حصن باب البحر بقيادة سيربوني ومعه ألف جندي إسباني وإيطالي [4].

وبتاريخ 29 ماي 1574م وصلت القوات من إيطاليا إلى حلق الواد، ونقل سيربيوني المرضى والعاجزين على حمل السلاح من تونس إلى إيطاليا لأنهم يشكلون عبئا في مثل هذه الظروف[5].

فلقد سعت إسبانيا في الحال للقيام برد فعل سريع للمحافظة على تونس غير أنها لم تقم بأي نشاط هام وحاسم وذلك لأسباب مالية وقيادية وعامل الوقت[6].

---

[1] بيشي رحيمة ،المرجع السابق ،ص 149

[2] الفونسو دو روسو ، المرجع السابق ،ص ص 410-105

[3] عبد القادر فكاير ، الصراع الجزائري الاسباني على الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط خلال القرن السادس عشر ، المرجع السابق ،ص 250

[4] طاهر تومي : المرجع السابق ، ص 302

[5] محمد سي يوسف ، المرجع السابق ،ص 154

[6] عبد الجليل التميمي ، عبد الجليل التميمي: الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، تق: محمد المزالي، الاتحاد العام التونسي للشغل، ط1، تونس، 1984م ،ص 105

Scanné avec CamScanner

مع هذه الأوضاع المتأزمة حاول دون خوان النمساوي السير بنفسه لمواجهة هذه الأوضاع ، لذلك وبتاريخ 7سبتمبر قرر تجهيز أسطول مسيحي يتكون من 60سفسنة لنجدة المحاصرين، إلاّ أنّ السلطات الإسبانية ممثلة في الملك فليب الثاني لم تأذن بالتحرك للأسطول إلاّ يوم 23 سبتمبر، وقد كان الأمر حسم لصالح العثمانيين.[1]

ب–تحرير حلق الوادي وتونس :

أ) تحرير حلق الواد:

أرست العساكر العثمانية بمرسى حلق الوادي، ونصبت أوطاق العلج علي وغيره من الكبراء وأنزلوا المدافع الكبار، وشرعوا يقتربون قليلا قليلا إلى القلعة ويبنون المتاريس ويستترون بها ويحفرون الخنادق فينزلون فيها وأخذوا يتقدمون على هذا الأسلوب إلى أن وصلوا حلق الوادي[2]،ولقد أبدى أحمد عراب فعالية ليس فقط كونه كقائد وإنما كمقاتل كذلك حيث دخل غمار المعركة مثل الجندي العادي وساهم في بناء المتاريس ،كما أبدى العلج علي هو الآخر دور فعال في الهجوم على حلق الوادي فقد ساهم كثيرا في تقدم الحصار في كل مكان ،يوجه ويشجع الرجال بأقواله وأفعاله[3]،فقد قامت قوات المسلمين بتضييق الحصار على حلق الوادي، حيث يقول ابن أبي الضياف :"وحاصر قلج علي باشا حلق الوادي ووالى عليه القتال إلى أن أخذوه عنوة"[4].

وشارك في هذا الحصار الجيش الجزائري بقيادة رمضان بـ3000 مقاتل وأهالي تونس، بسكرة، قسنطينة وعنابة والقيروان5. واستمر الحصار في حلق الوادي وكانت

---

[1] Branudel, la mede...op,cit,p297.

[2] محمود مقديش ، المصدر السابق ، مج2،ص 73

[3] عبد القادر فكاير ، الصراع الجزائري الاسباني على الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط خلال القرن السادس عشر ، المرجع السابق ،ص 252

[4] رتيبة زرداني وسعيدة بلهتهات ، المرجع السابق ،ص 85

[5] محمد سي يوسف ، المرجع السابق ،ص 168

Scanné avec CamScanner

المعارك بين الإسبانيين والعثمانيين عنيفة1، وعندما طال الحصار بدون نتيجة قام الأتراك بردم الخندق بالصوف والحطب والرمال والرصاص حتى يتغلبوا على الماء ويعبروا الخندق[2]. وبعدما تمت الاستعدادات الضرورية، بدأ القصف المدفعي الإسلامي في يوم 21 جويلية1574 انطلاقا من الساحل مما أدى إلى هدم أجزاء كبيرة من الأسوار، ونفذت القوات المحاصرة شيئا فشيئا إلى أن بلغتها[3].

وبعد قصف دام حوالي شهر كامل، أحدث العثمانيون بعده ثغرة في الحصن[4]، وذلك يوم 2 جمادى الأولى 982هـ/ 20 أوت 1574، وتم الاستيلاء عليها نهائيا يوم 23 أوت[5]1574، وبعد هجوم دام يومين من الاستيلاء على حلق الوادي أباد العثمانيون المدافعين عن القلعة حتى آخر رجل فيهم، وأعدم جميع الأسرى بمن فيهم المرضى في المستشفيات انتقاما لأرواح المسلمين الذين قتلوا، كما استولى العثمانيون على 200 مدفع وأكثر من 30 راية[6]، وغنموا جميع ما بها من ذخائر وعدة وعتاد. غير أن العثمانيين احتفظوا بـ300 شخص إسباني لطلب فديتهم بالأموال الكثيرة أو مبادلتهم بالأسرى المسلمين الموجودين في يد المسيحيين، ونسفت قلعة حلق الوادي للحيلولة دون وقوعها بأيدي الإسبان مرة أخرى[7].

---

[1] نعيمة بوحمشوش ، مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن السادس عشر ، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، اشراف ناصر الدين سعيدوني ،جامعة الجزائر ،1999 ،ص 168

[2]محمد المطوي العروسي ، المرجع السابق ،ص 732-733

[3]عبد القادر فكاير ، الصراع الجزائري الاسباني على الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط خلال القرن السادس عشر ، المرجع السابق ،ص 168

[4]طاهر تومي : المرجع السابق ، ص 307

[5] محمد سي يوسف ، المرجع السابق ،ص 156

[6] نيقولا ايفانوف ، المرجع السابق ،ص254

[7] فاضل بيات ، المرجع السابق ، ص581

Scanné avec CamScanner

ب)تحرير تونس:

أرسل سنان باشا إلى تونس قوة عسكرية تقدر بـ1000 رجل على رأسهم مصطفى باشا وحيدر باشا، وأرسل معهم إبراهيم بك من صنجاق مصر ومحمود بك من صنجاق قبرص، و1000 من العساكر مزودين بالمدافع[1].

وتوجهوا في الحال إلى تونس وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم، وناوشوها بالقتال من كل جهاتها[2].

واجهت القوات العثمانية الدفاعات الإسبانية التي قدرت بـ30ألف وتمكنت من هزيمتها، حيث خسر الإسبان 2000 رجل بين قتلى وجرحى ومدافعين، وأمام هذه القوة للجيش العثماني رأى كل من السلطان محمد والقائد الإسباني ترك المدينة والتوجه إلى حصن الباستيون الذي تحصنا به بعد أن زوداه بالمدافع والطعام والماء، فدخل العثمانيون تونس دون مقاومة وحصنوها[3].

بعث العثمانيون يخبرون الوزير سنان باشا بما وقع لهم ويطلبون منه المدد بالإغاثة لاقتحام حصن الباستيون ، فأرسل إلى نصرتهم القلج علي بطائفة من العساكر، غير أن القلج علي واجه صعوبة في التوغل لحصن الباستيون، فطلب عسكر آخر وعدة، فأرسل سنان باشا إليه 1000 يكنجري مع علي آغا سلحدار الباب العالي و8 مدافع[4].

كان الكفرة ومن معهم من المرتدين كثيرين ما بين فارس وراجل، كما جاءت لنصرتهم طوائف من العربان وخرجوا من قلعتهم مرارا ومات من الفريقين خلق كثير[5].

---

[1] محمد سي يوسف ، المرجع السابق ،ص 155
[2] ابن ابي دينار ، المرجع السابق ،ص 211
[3] محمد سي يوسف ، المرجع السابق ،ص 156
[4] محمود مقديش ، المصدر السابق ، مج2،ص74
[5] ابن ابي دينار ، المرجع السابق ،ص 213

Scanné avec CamScanner

وإثر ذلك اجتمع العثمانيون بقلب واحد لحصار هذا الحصن وضيقوا على أهله من كل جهة، حيث باشر سنان باشا الحرب بنفسه كواحد من الجند، فأمر هذا الأخير بعمل متراس يشرف منه على قتال من في البستيون، كما نجده قد نقل الحجارة والتراب على ظهره، وشدد الحصار على البستيون حتى استطاع فتحه.[1]

ويمثل يوم 13 سبتمبر يوماً فاصلاً في معركة تونس، لأنّه بهذا التاريخ استطاع العثمانيون شن هجوم مباغت، وفي نفس الوقت زرع الالغام تحت أبراج القلعة التي حدثت انفجارات عنيفة، وبذلك سهل اقتحامها والسيطرة عليها والقضاء على الجنود الإسبان المدافعين عنها، وفي أثناء هذه المعارك ألقى القبض على القائد سيربيوني أمّا ابنه فقد قتل[2]، هذا ما جعل القوات الإسبانية تتلقى ضربة قاضية شتت شملها وتركتها غير قادرة على المواجهة، لأنّ من غير المعقول أن تستمر المعارك في ظل انهيار معنويات الجيش بعد فقدان قائده، وبذلك أصبح يقاتل بدون هدف واضح، بعد أن فقد جميع القلاع التي سقطت الواحدة تلوى الأخرى بيد العثمانيين، زاد الطين بلة سقوط قلعة شيكلي وأسر قائدها زموقيرا، بالإضافة إلى بورتوكريو والسلطان الحفصي مولاي محمد الذين أرسلوا جميعاً إلى استانبول.[3]

بعد انتهاء المعارك واستسلام ما بقي من الجنود الإسبان تمّ استرجاع تونس نهائياً، وبذلك كسب العثمانيون الرهان واستطاعوا الخروج من معركة الليبانت أكثر إسراراً وقوة وعزيمة ، معلنين بذلك بداية الأحزان في أوروبا بعد أفراح دامت حوالي ثلاث سنوات بدايتها معركة الليبانت، وهكذا عادت الأوضاع إلى طبيعتها في بلاد المغرب التي أصبحت تابعة للخلافة الإسلامية بعد سنوات فقدت فيها وحدتها وتكاملها.

---

[1] محمد خير فارس ، المرجع السابق ،ص 54

[2] F.Elie, de la primaudaie, op, cit, p 466.

[3] محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص 157.

Scanné avec CamScanner

8-نتائج الفتح العثماني لتونس.

-استطاع العثمانيون الانتقام من هزيمة الليبانت، فقد تمكن علج علي وفي ظرف وجيز إعادة بناء الأسطول العثماني المتهالك أثناء معركة سالفة الذكر.

- تأمين طرق المواصلات البحرية بين الدولة العلية العثمانية وإيالاتها المغاربية.

- حُسم الصراع في هذه المعركة لصالح الأسطول العثماني، فقد تلقى الأسطول الإسباني هزيمة مدوية كانت لها أثاراً سلبية على مشاريع الإسبان وقادة الكنيسة الكاثوليكية ببلاد المغرب، لأنّهم تأكدوا أنّ بلاد المغرب لا يمكنهم احتلالها ببساطة في ظل وجود الدولة العلية.

- بفتح تونس وتحريرها نهائياً من الاحتلال الإسباني، انتقلت البلاد من العصور الوسطى التي غلبت عليها الاختلاف والتناحر الداخلي والأطماع الخارجية إلى العصر الحديث الذي تم فيه تأسيس الإيالة التونسية وانقراض الأسرة الحفصية.[1]

- أثناء المعارك أسر الأمير التونسي مولاي محمد بن مولاي الحسن الحفصي، الذي أرسله سنان باشا إلى الباب العالي أين بقي معتقلاً إلى أن توفي وبذلك انقطعت السلالة الحفصية بعدما حكمت تونس ما يقارب 350 سنة.[2]

- تعيين هيئة حكم بقيادة أمير الأمراء حيدر باشا الذي تلقى قرار التعيين من سلطان الدولة العلية ودُعم بحوالي أربعة ألاف جندي إنكشاري لحفظ الأمن والدفاع عن البلاد، وعُين المولى حسين أفندي قاض للحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وتنظيم

---

[1] محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص 124.

[2] حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 110.

Scanné avec CamScanner

الديوان، وبذلك كانت تونس لها نفس تنظيمات الدولة العلية العثمانية[1]، إلاّ أنّه يجب الإشارة أنّ تونس كانت لها تنظيمات خاصة أثناء حكم الحفصيين، وبذلك امتزجت تنظيمات الدولتين لبناء الدولة التونسية الحديثة.

- تحطيم الحصون والمنشآت الإسبانية خاصةً الموجودة بحلق الوادي، فقد أمر سنان باشا بتدميرها من أساسها حتى لا يتكرر ما حدث سابقاً حينما استطاع الاحتلال الإسباني السيطرة عليها واتخاذها قاعدة عسكرية استراتيجية لتثبيت أركانه ومهاجمة بلاد الإسلام عموماً والمغرب الإسلامي خصوصاً.
- استشهد من العثمانيين حوالي 10ألاف، سواء من الجنود النظاميين أو المتطوعين بالإضافة إلى الجرحى.
- قتل من الإسبان وحدهم حوالي 8000جندي، بالإضافة إلى عدد ضخم من الموالين للسلطان الحفصي مولاي محمد.[2]
- فقد الإسبان خيرة قادتهم بتونس وعلى رأسهم القائد دي زاموقيرا، سيربيوني، بورتو

كاريروا الذين تمّ إرسالهم إلى الباب العالي مقيدين بالأغلال دليلاً على ذلهم وخضوعهم للعثمانيين.

-زفت بشائر النصر إلى كامل أنحاء العالم الإسلامي، وعلى رأسهم السلطان العثماني سليم الثاني، الذي أرسل له سنان باشا أخبار النصر المبين الذي تحقق في تونس، ومن بعد نقلت الأخبار إلى سائر أنحاء الدولة العلية، وفي ذلك يقول محفوظ مقديش: << ...

---

[1] حسين خوجة: نيل بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان، تعليق وتحقيق، الطاهر معموري، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، 2001، ص ص 5، 6.

[2] محمد سي يوسف : المرجع السابق، ص 157.

Scanné avec CamScanner

وجهزت البشائر إلى الاعتاب العلية العثمانية وتطايرت أخبار هذه البشارة إلى سائر أقطار الإسلام...>>.[1]

– إفشال المشروع الإسباني الرامي لإعادة احتلال الجزائر وطرابلس الغرب وصولاً إلى مصر وغيرها من أمصار الإسلام، إلاّ أنّ إرادة السلطان سليم الثاني وعزمه على نصرة المسلمين والإسلام، وإدراك القادة العثمانيين لخطر الإسبان أنقذ البلاد والعباد من هذا المشروع الهدام.[2]

– قتل من الإسبان حوالي 13000مقاتل.

– استشهد من العثمانيين حوالي 13000شهيد.

– استشهاد العديد من القادة العثمانيين؛ على رأسهم صفر بك حاكم الإسكندرية وبايزيد بك حاكم ترحالة وأحمد بك حاكم ألتونة ومصطفى بك حاكم أسيس وخضر بك.[3]

– عنم العثمانيون 205 مدفع كبير وعدد من المدافع الصغار، فأبقى سنان باشا 25مدفعاً منها لحماية تونس، وأرسل 180 مدفعاً للباب العالي لتدعيم الأسطول.[4]

– وزعت مكافآت كبيرة(علوفة) على جميع الرؤساء والجنود، بالإضافة إلى الترقيات إلى مناصب أعلى؛ مكافأة لهم على جهادهم واجتهادهم لتحقيق هذا النصر العظيم.

– تدعيم مكانة سنان باشا عند حكام الباب العالي، أين أنعم عليه السلطان سليم الثاني بالترقية والدعم المادي والمعنوي، جزاء له على نصرة الدين الإسلامي والدولة العلية العثمانية ثم استقبل من طرف السلطان سليم الثاني، الدي قابله بحفاوة كبيرة دليلاً على

---

[1] محفوظ مقديش: المصدر السابق، ص 78.

[2] ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 183.

[3] محمود مقديش: المصدر السابق، ص 81.

[4] حاجي خليفة: المصدر السابق، ص 84.

Scanné avec CamScanner

تقديره للخدمات التي قدمها سنان باشا وسائر جنود الدولة العلية خلال هذه الحملة المباركة.[1]

– بضم تونس إلى الدولة العلية، تمّ توحيد إيالة الجزائر، طرابلس الغرب، تونس وبذلك أمن حكام الجزائر المؤامرات الحفصية الإسبانية التي كانت تحاك ضدهم[2]، وتحررت كامل بلاد كامل بلاد المغرب ماعدا وهران والمرسى الكبير، وقد كان محور الصراع الجزائري الإسباني، ابتداء من هذا التاريخ 1574م.

– تبادل الطرفان العثماني والإسباني عدداً كبراً من الأسرى، ومن اهم هؤلاء الأسرى الذين الدين تمّ إطلاق سراحهم محمد بن صالح رايس الذي أُسر في معركة الليبانت سنة 1571م.

– وقع في الأسر العديد من الصناع المهرة؛ خاصةً صناع المدافع وسبك النحاس وقد أعطى سنان باشا الامان لـ 205 منهم وزودهم بالمال في مقابل إرسالهم إلى الباب العالي من أجل استخدامهم في تطوير صناعة المدافع، ومن ذلك التاريخ تطورت المدفعية العثمانية.[3]

ملخص :

نخلص الى القول بأن تونس على عكس إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب أخذت وقتاً طويلاً جداً لتأسيسها، خاصةً إذا علمنا أنّ تواجد العثمانيين بهذه البلاد كان مبكراً وسابقاً لتواجدهم بطرابلس الغرب والمغرب الأوسط، ويرجع هذا التأخر لعدة عوامل نذكر منها:

---

[1] محمود مقديش: المصدر السابق، ص 82.

[2] عمار بن خروف: المرجع السابق، ص ص 86، 87.

[3] ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 185.

Scanné avec CamScanner

-وجود سلطة محلية حاكمة، مرتبطة بالسكان المحليين ارتباطاً وثيقاً، لأنّهم من أهل هذه المنطقة، وكانت البلاد موحدة وخاضعة لها، بالرغم من وجود العديد من التمردات داخل البلاد هنا وهناك.

- الدعم الذي قدمه مولاي الحفصي عند قدوم العثمانيين إلى بلاد المغرب وجعل علاقات الود تستمر بين الطرفين حتى ولو كان لمدة قصيرة.

- الشرعية الدينية والدنيوية التي تميز بها السلاطين الحفصيين داخل البلاد التونسية كانت سبباً مانعاً للعثمانيين لضم تونس، لأنّهم كانوا يعلمون أنّهم دخلاء على المنطقة، وتدخلهم يزيد المنطقة تأزما، لذلك انتظروا حتى جاءت الفرصة المناسبة.

- اعتقاد السكان المحليين بشرعية الحفصيين وارتباطهم المعنوي بهم على اعتبار انّهم أسرة حاكمة محلية، على العكس لو تدخل العثمانيون في وقت مبكراً لكانوا تلقوا معاملة الدخيل على البلاد، وقد حدثت العديد من التمردات حلال المحاولة الاولى سنة 1534و1573م.

مصادر ومراجع الدرس :

عبد الجليل التميمي: الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، تق: محمد المزالي، الاتحاد العام التونسي للشغل، ط1، تونس، 1984م.

عبد الجليل التميمي: رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية المغربية في القرن 16عشر،م ،ج ، ت، ع29.

E.guellouz,A , masmoud, M ,smida, Histoire de la Tunisie, société tunisienne de diffusion,Tunis,1983

جلال يحي: أوروبا في العصور الحدية "الفجر"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، مصر،1981.

Scanné avec CamScanner

علي بن محمد التمكروتي : النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم وتحقيق، عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، المملكة المغربية،1423هـ/2002م.

محمد سي يوسف: قليج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: أبو القاسم سعد الله، جامعة الجزائر، 1988م.

حسين خوجة: ذيل بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان، تعليق وتحقيق، الطاهر معموري، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، 2001.

نعيمة بوحمشوش ، مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن السادس عشر ، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، اشراف ناصر الدين سعيدوني ،جامعة الجزائر ،1999.

Scanné avec CamScanner

الدرس الثامن : إلحاق تونس بالدولة العثمانية

مقدمة :

مع نهاية القرن السادس عشر بدأت تونس عهدا جديدا ،إذ شهدت عدة تغيرات في ظل الحكم العثماني للبلاد ، فعرفت نظاما غير الذي كان سائدا في البلاد أيام الحفصيين خاصة في ظل رغبة العثمانيين في بسط نفوذهم على البلاد واستغلال الامكانيات والموقع الاستراتيجي لتونس ، وسنحاول في هذا الدرس التعرف على أنظمة الحكم التي كانت سائدة في تونس أيام الحكم العثماني .

أولا: فترة حكم الباشوات(1574-1591)

بعدما تمكن الاسطول العثماني من دخول تونس عمد العلج علي وسنان باشا [1] إلى تنظيم إدارة البلاد فجعلها تابعة لسلطة البيلرباي الجزائري رمضان باشا (1574-1577) وعين عليها حلفاء لإدراتها ، ثم قرر السلطان العثماني في عام 1587 إعادة تنظيم مناطق الدولة في شمال إفريقيا ، فتحولت تونس وطرابلس والجزائر إلى ثلاث نيابات تابعة لاسطنبول ويديرها باشوات يعينهم السلطان لفترة غير محددة .

وقد تميزت بداية الحكم العثماني لتونس بالهدوء والاستقرار ، نظمت فيها إدارة البلاد اعتمادا على النظم الحفصية وفرض نظام الضرائب على كافة المناطق واحتكرت السلطة من

---

[1]سنان باشا: ولد سنة 1506م، أحد قادة الجيوش العثمانية، كان له الفضل في الجهاد العثماني خاصة في الشمال الإفريقي وفي القرن السادس عشر ميلادي، اشتهر بذكائه وقدراته العسكرية و السياسية، فشغل منصب وزير لدى السلطان العثماني، وكان قائدا للحملة على تونس 1574م. للمزيد انظر: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1981م، ص263.

Scanné avec CamScanner

قبل الأتراك حيث عين على رأس السلطة باشا ، الذي يتولى السلطة بموجب فرمان همايوني في مدة قصيرة لا تتعدى الثلاث سنوات ،مخافة أن يتجذروا في مناصبهم ، ولقد تداول على الحكم عشرة ولاة من 1574 إلى سنة 1591 ،يستعين بحامية الانكشارية لاستتباب الامن والجهاد البحري وبمجلس ديوان الذي يقدم له المشورة ، وكانت سلطة الباشا تتميز بالقوة والحرص على جمع الضريبة التي تعد المورد الرئيسي للايالة ،وقد كان هذا السلوك يثير كثيرا السكان وخاصة القبائل التي لم ترتح لهذه السلطة الجديدة[1] .

ومن الباشوات الذين حكموا البلاد نذكر حيدر باشا الذي حكم أواخر سنة 1573 ،اذ نصبه سنان باشا قبل ذهابه الى اسطنبول كحاكم على الايالة العثمانية الجديدة ، وسعى حيدر باشا الى مواصلة تحرير الثغور وتثبيت الحكم العثماني في تونس ،واصبح يلقب بالباشا وساعدته الحامية العسكرية العثمانية على فرض الامن وحماية البلاد من الاخطار الخارجية[2] ،وعرفت تونس في هذه المرحلة سطوة رجال الانكشارية على الاهالي ، اذ اعتبروا انفسهم اسياد البلاد فكثر ظلمهم وقسوتهم وبطشهم حتى ادت هذه الاوضاع الى قيام اضطرابات وتمردات داخلية وثورات ضدهم مثل ثورة 1590، وكانت لهذه الثورة عدة نتائج خاصة على المستوى الداخلي ولعل أبرز هذه النتائج تحديد مهام الديوان [3]والحد من صلاحياته في المقابل يتمتع الداي[4] بصلاحية واسعة[5] ،ثم خلفه رجب باشا الذي عرف بقوته

---

[1] محمد الهادي الشريف : المرجع السابق ، ص ص 68-69

2 حسن حسني عبد الوهاب : المرجع السابق ،ص113.

3 الديوان : كلمة فارسية تعني الدفتر او السجل ، في العهد العثماني تعني مجلس الشوري ، ويتكون الديوان عادة من رؤاء جند الانكشارية والباشا والمفتي والقاشي والكواهي (الكتاب) بالاضافة الى الاغاروات السابقين .

4الداي : ويطلق هذا اللفظ على قادة الانكشارية او الضباط الكبار في الجيش

5حسن حسني عبد الوهاب : المرجع السابق ،ص 106

Scanné avec CamScanner

وشجاعته ،ثم عوضه حيدر باشا مرة أخرى سنة 1576 ،لكن سرعان ما ثار الاهالي ضد سياسته التي وصلت أنباءها إلى الاستانة فعوضه رمضان باشا إلى سنة 1579،ثم خلفه جعفر باشا فمصطفى باشا ثم جاء بعده حسن باشا إلى سنة 1591.[1]

ومن جهة آخرى كان نفوذ العسكر التركي يزداد يوما بعد يوم وينافس سلطة الباشا ،وتميزت مرحلة الباشوات بزيادة نفوذ الانكشارية على حساب سلطة الباشا ، إذ قاموا في محاولة لتقليد أوجاق الجزائر ، و اغتنم رجال الانكشارية الازمة السياسية والمالية التي كانت تمر بها الدولة العثمانية وتذمر السكان من سلوك السياسة العثمانية وعمدوا للاستيلاء على السلطة وتشكيل ديوان بديل ، واختار أعضاء الديوان حاكما للبلاد لقبوه بالداي ، واضطرت الاستانة للموافقة على ذلك عام 1591[2] .

حكم الدايات في تونس (1591-1640)

نظرا لتزايد نفوذ الباشوات وتمتعهم بالثروة والامتيازات واستحواذ الاغوات على الأملاك والعقارات واهتمام موظفي الادارة من الخوجات والقيادات بتوفير المصادر المالية للخزينة واثقال كاهل الاهالي بالضرائب في المدن والارياف ، وتماديهم في مظالمهم تجاه الرعية من السكان وتقاعسهم في ترتيب واجبات جند الانكشارية الصغار من الرواتب، مستغلين انشغال الخلافة العثمانية والسلطان مراد الثالث بالحروب التوسعية المنهكة مع الفرس الصفويين في الحدود الشرقية من الاناضول ،وكذا انشغاله بالحملات العسكرية المستمرة بقيادة حسن

---

[1] شارل اندري جوليان : تاريخ شمال افريقيا تونس الجزائر المغرب الاقصى من الفتح الاسلامي الى سنة 1830، الجزء2، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر والتوزيع ، تونس ، 1978،ص 353.

[2] محمد الهادي شريف ، المرجع السابق ،ص 222

Scanné avec CamScanner

باشا ضد أسرة آل هابسبورغ النمساوية وعلى مدينة بيهاتش التركية من عام 1591 الى عام 1593،فإغتنم الضباط الصغار من (الدايات) تلك الظروف واتفقوا مع وكيل الخرج *طبال رجب *من أعضاء سلطة الحكم في ديوان أوجاق الانكشارية بتنظيم ثورة للاطاحة *بالباشا جعفر *وديوانه من الأغوات في يوم الجمعة 13أكتوبر 1591لحظة تجرد أعضاء الديوان من أسلحتهم ، فنجحوا في السيطرة على قصر الحكم بقصبة تونس العاصمة وأعلنوا بداية مرحلة جديدة من الحكم سميت بالدايات [1].

واتضح بعد حكم ابراهيم رودسلي أن نظام القادة العسكريين الديمقراطي من الصعب تطبيقه ،وخلال بدايات هذه المرحلة شهدت الايالة التونسية استقرارا داخليا في عهد ابراهيم داي (1590-1592) إذ عرف عن هذا الداي الحكمة وحسن التصرف والصبر ومراجعة قراراته ، حتى أنه تخلى عن الحكم وحج البيت الحرام ، وجاء بعده موسى داي الذي تخلى هو ايضا عن الحكم بعد أن واجه خصومه ووقف ضدهم غير أنه تخلى عن الحكم مثل سابقه، ثم خلفه عثمان باي على الحكم وفتح منذ عام 1598 عهدا جديدا لسيطرة الدايات بالقوة والذي استمر إلى حوالي منتصف القرن السابع عشر وقد لقي الحكم الفردي لهؤلاء الدايات نجاحا يرجع إلى تمتعهم بقوة الشخصية ، إذ كان أغلبهم من قيادات الجيش مثل عثمان داي (1598-1610) الذي تميز عهده بتنظيم الاقاليم وتقديم الجباية[2] ، إذ قيل عنه بأنه يعتبر أول داي انفرد بالكلمة في سبع ألف وكانت فيه شجاعة قوية بحيث باشر الامور بنفسه وانه قام

---

[1] **حسن حسني عبد الوهاب ، المرجع السابق ،ص ص 160-161**

[2] **ابن ابي دينار ، المصدر السابق ، ص138**

Scanné avec CamScanner

بالدولة أحسن قيام لاترد كلمته إذ تكلم لايراجعه أحد [1]،أما ابن أبي الضياف فيقول عنه (...ولما تقدم للولاية وجد المملكة خاوية على عروشها ،أضعف ما يكون من قلة الرجال والعمران ،فشمر عن ساق جده لتمهيد الامان ،بنفي ممن توسم فيهم الشر ...)[2]واستطاع هذا الداي ضبط الأمن وقمع الثوار خاصة القبائل الموالية للحفصيين واتخاذ عدة مماليك على الجهات [3]واستغل هذا الداي نفوذه ونزعته القوية ففرض ضرائب باهضة على الاهالي ماعدا الاتراك الذين استثناهم من هذه الضرائب التي أطلق عليها إسم المجبي ، والتي كانت موجهة في غالب لخدمة حاجيات ولوازم جند الاتراك ، والتي أصبحت فيما بعد مصدرا لظلم الاهالي والتحقير بهم ،[4]كما رتب قوانين الرعية في دفتر سماه بالميزان ، وتميز عثمان داي بالشجاعة والشهامة [5].كما سيطر على الجيش وعلى الديوان وأصبحت كل القرارات تصدر عن رأيه وتبعا لإرادته ،[6]كما اهتم بالاندلسيين الموريسكيين وقربهم اليه ، ومن أهم انجازاته التي بقيت خالدة في التاريخ ضم جزيرة جربة للايالة التونسية سنة 1605[7]،كما تميز عهده بكثرة غنائم الجهاد البحري حتى ذكر ابن أبي دينار في كتابه بأنها لاتوصف في قوله :(....وكثرت في أيامه غنائم البحر التي كانت لاتوصف ، وكان عثمان باي اذا جاءت غنائمه طلع إلى حلق الوادي وبيعت

---

1 ابن أبي دينار ، المصدر السابق ص28
2 ابن أبي الضياف ، المصدر السابق ،ج2 ص28
3الباجي المسعودي ،المصدر السابق،ص210.
4 رشاد الامام ، المرجع السابق ، ص174.
5الباجي المسعودي ، المصدر السابق ،ص91
6ابن أبي دينار ، المصدر السابق ،ص 226.
7محمود مقديش : المصدر السابق ،ص90.

Scanné avec CamScanner

غنائمه هناك فيقع للتجار ربح قوي ...ومهد البلاد وجعل قوانين للرعايا يكون العمل بها ويسمونها قوانين عثمان داي ...)[1].

ومن أبرز الدايات نذكر رمضان باي [2]الذي أشتهر بقمعه للثوار وجباية الاموال ،ومن جنود البحرية الشجعان مثل مراد أسطا (1637-1640) وسياسيين دهاة مثل يوسف داي (1610-1637) الذي عرف بقوة شخصيته وقلص من نفوذ الانكشارية في البلاد ، كما اهتم بالرعية فعرف بعدالته وحسن سياسته ،كما اهتم بالأسطول وسعى إلى تحديثه لأنه قوة البلاد واستقرارها فبنى الحصون والقلاع وقام بتعزيز القدرات الدفاعية والهجومية للبلاد ،لذلك يذكر الباجي بأنه في عهده جرى خلاف حاد بين تونس والجزائر إذ تصالح معهم وظل متربصا بهم لأخذ حقه منهم ، مما جعله يهتم بالجيش ويطوره بأحدث المعدات كما اهتم بالجباية ،وفي عهده أيضا تم إعادة جربة إلى حوزة تونس هذا بفضل جهود سعيد بلجواد أول من تولى مشيخة الجزيرة من هذه العائلة [3].

وقد حكم الدايات البلاد بتسلط وأشاعوا الأمن وقسموا البلاد إلى بايلكات على رأسها باي يفرض سلطته المباشرة على القبائل ، وفرضوا الضرائب وقربوا إليهم أعيان البلاد نكاية في زعماء القبائل التقليدين الذين أيدوا من قبل الحفصيين ، وقد ازدهرت في عهدهم القرصنة البحرية وعقدوا عدة معاهدات مع القوى الاوربية مثل فرنسا والمدن الايطالية ، واهتموا بتطوير وتوسيع التجارة ، كما أسهم الاندلسيون في تطوير اقتصاد وتجارة البلاد فكان لهم

1حسن حسني عبد الوهاب :المرجع السابق ،ص114.

2يذكر محمود مقديش أن القائد رمضان هو اول من اطلق عليه اسم الباي الذي قدم من الجزائر بعدما تقلد فيها عديد المناصب ، للمزيد انظر محمود مقديش ، نزهة الانظار ، المصدر السابق ،ص98.

3 السراج ،الحلل السندسية ، الجزء الثاني ،ص359

Scanné avec CamScanner

دورا بازرا في هذه المجالات وغيرها ،وفي الجانب الديني حافظ الديات على نظام المدينة الاسلامية مما زاد سلطان الدايات شرعية [1].

أما خارجيا فقد شجع الدايات التجارة الخارجية البحرية ودعموا نشاط رياس البحر وحركة الجهاد البحري في حوض البحر الابيض المتوسط ، إذ اكتسب الاسطول البحري التونسي سمعة دولية بين الممالك والدول الاوربية والعربية .

وعلى العموم فإن مرحلة الدايات عرفت حماية الأشخاص وأعيان المدن وحماية ممتلكاتهم وتعقبهم لأهل الفساد ، وتوسيعهم المناطق الأمنة حول المدن ، كما ضمنوا موارد للرزق بفضل تنظيم أحسن لشؤون البلاد وبفضل تطوير مواردها ، كما أعادوا إلى الصفوف ذلك الانضباط الشديد الذي كان مصدر قوتهم ، وفرضوا على غير المنتظمين من العساكر بالعقاب إعداما أو اجراءات الردع العنيفة.[2]

ملخص :

ونخلص إلى القول بأن نهاية القرن السادس عشر عرفت منطقة الحوض الغربي للمتوسط تحولا جذريا من السلطة الحفصية في تونس إلى الايالة التونسية العثمانية ، وأدى هذا التغير إلى تحول في طبيعة الحكم من جهة وبداية مرحلة جديدة في تونس تحت النفوذ العثماني مما ينجر عليه تحولات في طبيعة العلاقة بين الشمال والجنوب للمتوسط وكذا العلاقة بين شرق تونس وغربها .

---

[1] A.Masmoudi et M Smaida ,tunis au XXI de la chute des hafside a'linstallation des turce ,socites tunisienne de diffusion,tunis,1983,p22

[2] **عزيز سامح ألتر :الاتراك العثمانيون في شمال افريقيا ،ط1، ترجمة محمود علي عامر ،دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1989،ص323.**

Scanné avec CamScanner

مصدرومراجع الدرس :

2. عزيز سامح ألتر :الاتراك العثمانيون في شمال افريقيا ،ط1، ترجمة محمود علي عامر ،دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1989.
3. شارل اندري جوليان : تاريخ شمال افريقيا تونس الجزائر المغرب الاقصى من الفتح الاسلامي الى سنة 1830، الجزء2، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر والتوزيع ، تونس ، 1978
4. عبد الوهاب حسن حسني ، خلاصة تاريخ تونس ،دط ،الدار التونسية للنشر تونس ، 1983
5. محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1981م،
6. محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ماقبل التاريخ إلى الاحتلال ، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة ، ط3، دار سراس للنشر، تونس ، 1993
7. أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، 8ج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الدار التونسية للنشر، الجزائر، تونس، 1974م، ج2،
8. الباجي المسعودي: الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تق وتح وتع: محمد زينهم، محمد عزب، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، 2013م 1
9. أبي دينار أبو عبدالله، المؤنس في أخبار إفريقيا والأندلس، دار المسيرة، لبنان ، . 1993.
10. محمود مقديش :نزهة الانظار في عجائب التواريخ والاخبار ، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ،ط1،دار الغرب الاسلامي ،بيروت ، مج1988.
11. A.Masmoudi et M Smaida ,tunis au XXI de la chute des hafside a'linstallation des turce ,socites tunisienne de diffusion,tunis,1983

Scanné avec CamScanner

الدرس الثامن : فترة حكم الأسرة المرداية (1631-1702)

مقدمة :

حكم دايات تونس البلاد بتقسيمها إلى بيلكات على رأس كل بايلك باي ومنح الباي سلطات واسعة في اقليمه حتى أنه أصبح يورث منصبه لذريته وقد تمكن مراد من أن يشيد لنفسه نفوذا واسعا وأن يورث منصب الباي لابنائه فحكمت الاسرة المرادية البلاد إلى غاية عام 1702.

أهم المحطات التاريخية للاسرة المرادية في تونس :

وقد كان مراد كورسو مملوكا من كورسيكا يدعى ب :جاك سانتي اعتنق الاسلام والمذهب الحنفي و حكم من سنة 1612-1631م، وهو مملوك من أصل كرسيكي أسر صغيرا وأوتي به إلى تونس فإشتراه رمضان باي ورباه ودربه على قيادة المحلة فكان يجوب الأرياف في مواعيد منتظمة ليستخلص الضرائب وليتب حدا أدنى من النظام، كما أظهر حنكة في السيطرة على قبائل سعيد وأولاد شنوف المتاخمة للحدود الصحراوية من أراضي الايالة الجزائرية وبلاد الزاب[1] ، كما تقلد منصب باي بعد موت سيده حوالي سنة 1613م وتخلص من منافسيه، حيث كان تحت تصرفه قوات عسكرية هي المحلة وحصيلة الضرائب المستخلصة من المقاطعات.[2]

---

[1] كورة صغيرة يقال لها ربغ وهي كلمة بربرية معناها السبخة ، أو نهر جرار بارض المغرب على البحر الاعظم عليه بلاد واسعة وقرى،ومن الزاب الكبير كل من بسكرة وطولقة وتوزر وقسنطينة ومدن اخرى ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الرابع ،ص 365.

[2] عزيز سامح ألتر، الأتراك العثمانيون في شمال أفريقيا، تع: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1989، ص 77.

Scanné avec CamScanner

وقد طلب مراد باي من الحضرة السلطانية العثمانية أمرين هامين كانا سبب بزوغ الدولة المرادية، وهما: الأول حصول مراد باشا على فرمان سلطاني يأذن له بتولي منصب الباشا، أما الثاني حصوله على إذن يكرس حق توريث السلطة وتولية إبنه بعده، حيث تأكدت سلطتهم التي أصبحت وراثية.[1]

وتولى منصب الباي ثم خطط للوصول إلى سلطة الداي معتمدا على مغامرته ودعم القبائل والاعيان له ، فأخضع لنفوذه الكثير من المناطق الداخلية إلى غاية 1631 وخلفه ابنه حمودة باشا وأصبح يلقب بالباي أو الحاكم المطلق في البلاد بعد اعتلائه العرش في تونس .

كما عن مراد باي الصرامة والكفاءة وسعى إلى الرفع من مرتبته فراسل الدولة العثمانية وحصل منها على مرتبة الباي ،فتحول النفوذ من الداي إلى الباي غير أن النجاح الاكبر الذي حققه هذا الباي أنه جعل الحكم وراثيا [2]،وقمع الثوار خاصة عبد الصمد الشابي ، واستعاد عدة مناطق مثل حامة قابلس من أولاد سعيد والكاف من بني شنوف ، كما رتب أوجاق الصبايحية بتونس والكاف والقيروان وباجة [3]، كما بنى مراد باي دار الباي المعروفة بسرايا المملكة بتونس والتي بنى بالقرب منها ابنه حمودة فيما بعد حماما يعرف بحمام نهج دار الجلد ودارين واحدة لولده محمد الحفصي صاحب سوق الشواشية المعروف بسوق الحفصي وواحدة لولده مراد باي الوسط (يعني مراد الثاني)[4].

---

[1] أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ت: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999، مج 1، ج 2، ص ص 35–37.

2 شوقي عطا الله الجمل ، المرجع السابق ،ص 109

[3]الباجي المسعودي ، المصدر السابق ،ص93

4 محمد بن خوجة : صفحات من تاريخ تونس ،تقديم وتحقيق حمادي الساحلي والجيلالي بن الحاج يحي ،ط1،دار الغرب الاسلامي ،بيروت ،1986،ص52.

Scanné avec CamScanner

وبعد اعتراف الدولة العثمانية بمراد الاول منحته لقب الباشا سنة 1631 نظير أعماله ومجهوداته في تمدن وتطور البلاد التونسية خاصة بالنظم العثمانية ، فإستغل مكانته وعمل على تهيئة الظروف لابنه حمودة بك حتى يتبوأ مكانة في ديوان الحكم لدى الداي أسطا مراد ، فلما توفي هذا الاخير تمكن حمودة بك من الاستأثار بالحكم وجعله وراثيا في محيط الاسرة المرادية .

وقد استطاع حمودة باشا (1631-1659) القضاء على تمردات قبائل أولاد سعيد فهزمهم سنة 1631حتى وصل بلاد جريد ، كما قضى في عهده على تمردات الاعراب سنة 1636، ثم اخضع قبائل بني شنوف المتواجدة في جبل الوسلات [1].ونتيجة لهذه الانتصارات دانت له البلاد وصار الحاكم الفعلي للإيالة التونسية وتولى رتبة الباشا رسميا سنة 1657، بموجب فرمان من السلطان العثماني الذي جاء فيه الباشا ابن الباشا ، أما علاقته بالدايات فقد اقتدى بوالده في معاملته للدايات وحصر سلطتهم في الشؤون العسكرية وامن العاصمة ، ثم زاد فانتهج سياسة تضعيفهم والتقليص من مهامهم والاستبداد عليهم بالنفي والاغتيال [2]كما أشتهر بإعادة تنظيم البايلك وتطوير الجيش الذي أصبح مركبا من الاهالي الزواوة (القبائل) ومن الصبايحية (قبائل المخزن) وأصبح بذلك منافسا للداي في تونس ، خاصة عندما نقل مقر حكمه إلى العاصمة تونس وأصبح يمارس السلطة الفعلية على البلاد ،كما تمكن من اخضاع قبائل الارياف واستمال القبائل المخزنية بمنحهم الامتيازات الاقطاعية الزراعية والاعفاءات الجبائية ، وشهدت تونس في عهده انتعاشا في اقتصادها وتجارتها الداخلية ونهضة في مختلف

1السراج ،المصدر السابق ،ص ص187-189

2رشاد الامام : المرجع السابق ،ص 52.

Scanné avec CamScanner

منشآتها المعمارية والثقافية ، كما شجع على الجهاد البحري والقرصنة ضد الاساطيل المسيحية ، ونظير انجازاته في مختلف المجالات استطاع الحصول من السلطان العثماني على الشرعية في توريث الحكم لأسرته كما تلقى التشريفات الرسمية المدعمة لسلطته والتي مكنته صلاحية نقل الملك بعد وفاته سنة 1666 لوريثه مراد الثاني .

واستطاع مراد الثاني أن يصل إلى حكم البلاد فعليا (1659-1675) وقد أعلن صبغته التركية لكسب موقف السلطان العثماني وتقرب من الاعيان لإعانته في الوصول للحكم ، وحقق كثيرا من المنجزات في فترة حكمه التي تميزت بالاستقرار واستتباب الامن ، ولكن لم يلبث أن استشرى النزاع بين أفراد الاسرة على السلطة ، ولم يستقر الوضع الا بعد أن استخلص محمد بكر السلطة سنة 1681 ، أين عمد إلى القضاء على الفوضى التي عمت البلاد بسب تدخل أتراك الجزائر لإعادة تنصيب الحزب التركي في تونس .

كما عرفت البلاد في عهده عدة ثورات وتمردات داخلية ضد الحكم ومنها ثورة والي طرابلس الغرب يقيادة عثمان باشا وكذا ثورة الانكشارية ، كما وقف ضد تمرد أهل وسلات الذين عصوا أمره خاصة وانهم قاموا بمساعدة المتمرد على الحكم ابو القاسم الشوك ولخوفه من سطوة مراد باي التجأ إلى الجبل مع أبناء جنسه ودخل في حالة تمرد وعصيان ، فكاتب الباي هذا المتمرد وبعد رفضه لأمر الباي جهز مراد باي الثاني حملة ضده سنة 1674فحاصر جيش الباي هذا المتمرد الذي قتل نفسه ، فكانت هذه آخر حملة للباي مراد الثاني الذي توفي سنة 1875 إذ استطاع القضاء على هذه الثورات ثم تولى بعده الحكم محمد بن مراد باي وأخوه علي

Scanné avec CamScanner

باي [1]،وقد طفت صراعات وخلافات حادة بينهما مما أدى إلى تدخل الديوان الذي استقر على ضرورة خلع الاخوين وتقديم عمهما محمد الحفصي لتولي الحكم سنة 1675[2].

وهو الباي الذي زج بالداي في ظلام السجن سنة 1671، ثم بعد أن أخمد نار ثورة قام بها العسكر، إستقر بصفة الحاكم الأوحد للبلاد وقد توفي مراد باي في سنة 1675. [3]

وقد عمل النظام المرادي على إضعافه للجند مع مواصلته الإعلان عن صبغته التركية، ومعاملته الجمهور الواسع من الرعايا المحليين معاملة الشعوب المغلوبة كان يتعرض إلى فقدان ركائزه الطبيعية التركية بصورة خطيرة. [4]

نتيجة لهذا دخلت البلاد في حروب أهلية بعد وفاة مراد الثاني سنة 1675م، عندما طالب كل من ابنيه محمد وعلي وأخيه محمد الحفصي بالسلطة العليا لنفسه وسلاحهم بأيديهم فتقابل المتنازعون على السلطة في حرب لا هوادة فيها قسمت البلاد إلى سنة 1686م، وهو تاريخ إنتصار محمد بكر مراد بفضل مساعدة جند الجزائر وكانت مساعدة مبنية على المصلحة. [5]

ثم ساد الهدوء بضع سنوات حتى الغزو الجزائري وإعادة تنصيب الحزب التركي بين نوفمبر من سنة 1694م وجويلية من سنة 1695م، بعد ذلك إنتهى حكم في يد رمضان باي (1696-1699م). [6]

1ابن أبي دينار ، المصدر السابق ،ص ص 231-233

[2]محمود مقديش ،المصدر السابق ،ص107

[3] بن أبي الضياف ، المصدر السابق ،ص ص **35–42**.

[4] محمد الهادي الشريف، المرجع السابق ، ص **78**.

[5] محمد الهادي الشريف، المرجع السابق ، ص **79**.

[6] نفسه ، ص **80**.

Scanné avec CamScanner

وفي في أواخر القرن السابع عشر وبالتحديد في فيفري 1699م إضطربت أحوال البلاد نتيجة لتمرد مراد الثالث على عمه رمضان باي وسجنه ثم قتله سنة 1699م، ويذكر مقيدش : ...أنه في بداية عهده كان يبدي لوائح العدل والانصاف فصدقه الناس ولما تمكن تصرف بعنف وتعسف ،[1]وإعتلى عرش تونس وتمكن من الحصول على تصديق الباب العالي وهذا ما أضفى شرعية لحكمه، وكرس نفسه للإنتقام من أعدائه وأعداء أبيه أشد الإنتقام، إذ كان بنفسه يباشر كل عمليات التعذيب الدموية، فذاعت سيرته وصيته القبيحان بين التونسيين، من الظلم الذي إستباح المحرمات كلها من هتك ومجاهرة بالفواحش وسفك لدماء الأبرياء بسبب فهمه الباطل، ولو لمجرد ظن خاطئ كان سيف يدعى البالة، لا يكاد يريحه يوما من إراقة الدماء وقد عرف به فيقال له مراد بوبالة. [2]

وفي ربيع سنة 1700م حدثت معركة بين قوات باي قسنطينة ومراد باي، خرج منها مراد باي منتصرا مرتكبا مجزرة في حق الأسرى التي أثارت غضب الإنكشارية، مما جعلهم يطالبون الداي الحاج مصطفى بأن يأخذ بثأرهم من التونسيون، فجمع الداي الإنكشارية وتوجه بهم نحو الشرق القسنطيني لمحاربة مراد باي دارت بينهما حرب تكبد فيها إيالة تونس خسائر كبيرة. [3]

---

[1] **محمدود مقيدش ، نزهة الانظار في عجائب التواريخ والاخبار ،تحقيق علي الزاوي وومحمد محمود ، المجلد2،ط1، دار الغرب الاسلامي ،لبنان ،1988،ص143. ،ص**

[2] سمية تركي، سناء ذيب، الأسرة الحسينية بتونس والقرمانلية بطرابلس الغرب (عهد التأسيس والمواقف) **1705–1745**: دراسة مقارنة، مذكرة الماستر، تخصص: تاريخ المغرب العربي الوسيط والحديث، إشراف: محمد السعيد عقيب، جامعة الشهيد حمة لخضر، الجزائر، **2018/2017**، ص ص **12–13**.

[3] سمية تركي، سناء ذيب ،المرجع السابق، ص **13**.

Scanné avec CamScanner

بدأ حكم العائلة المرادية بالزوال بسبب الإستبداد في الحكم وقتل العلماء والوجهاء، والركون إلى الملذات، فضلا عن قيام مراد باي بحملة على الجزائر، وقد أرسل إبراهيم الشريف إلى مراد باي لمنعه من قيام بحملة الثانية ضد الجزائر، لكنه إزداد إصرارا على حرب الجزائر في سنة 1702م، مما دفع بالسلطان مصطفى إلى تكليف إبراهيم الشريف بقتل مراد باي وكتب له سرا خلفا له[1]، وقد تمكن الشريف من مباغتته ورماه بالرصاص ثم أجهز عليه بالسيف وقطع رأسه، وأرسل خلف الباشا محمد باي حسن وحمودة بن حسن بن مراد المختل عقليا وإبنه ذو الأربع سنوات وقطع رؤوسهم، وهنا تم القضاء على سلالة المراديين [2]، وبعد وفاة مراد باي انقرضت دولة بني مراد بعد مقتل آخر أبناءها ونتيجة لهذه الإضطرابات أدت إلى ظهور قيادة جديدة ونهاية أسرة المرادية التي سيطرت مدة من الزمن على الحكم. [3]

بعد أن تمت البيعة لإبراهيم الشريف في شهر جوان سنة 1702م كسب الأهالي بالعمل الذي قام به وهو التخلص من الغاشم الذي أذاقهم الويلات في فترة حكمه من جهة، ومن جهة أخرى إستطاع إرضاء الطائفة التركية العسكرية، لهذا ظهر بمظهر حسن. [4] ولما بلغ خبر قتل مراد باي لحسين بن علي خرج من تونس نحو طرابلس خوفا على نفسه من إبراهيم الشريف، فلقي هناك الوزير أبي الحسن السهيلي، فأرسل لهما إبراهيم الشريف رسالة مضمونها "إني منعت المسلمين من فتكات هذا الجبار الذي لا يأمن أحد غائلته، وخاطرت

---

1 حسن عبد الوهاب ،خلاصة تاريخ تونس ، ط3 ، مطبعة دار الفنون ، تونس ، دت ، ص146

[2] الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ت.ت: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1985، ج 2، ص ص 667-673.

[3] دلندة الأرقش، جمال بن طاهر، عبد الحميد الأرقش، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مركز النشر الجامعي، تونس، 2003، ص 60.

[4] دلندة الأرقش واخرون ، المرجع السابق ، ص ص 61-62.

Scanné avec CamScanner

بنفسي لقتله لمصلحة المسلمين، ولا طاقة لي على الولاية إلا بكما، فإن أعنتماني على المصلحة ... وإلا تركت الأمر"، وكان لهذه الرسالة أثرها في عودة حسين بن علي إلى تونس.[1]

وبعد عودته عين حسين بن علي آغا الصبايحية، فلما إستقام أمر الولاية لإبراهيم الشريف بعد أن أظهر حسن التصرف فيها، بدأت تتغير سياسته فيها حيث إنقلب حاله عما كان عليه أولا، فأطلق يده في ظلم الرعية وسلب أموالهم[2]، كما قام بعزل الداي قارة مصطفى وباشر منصب الداي بنفسه، وصار يكتب في أوامره إبراهيم الشريف باي داي، وكان ذلك يوم الأحد 29 أكتوبر 1702م[3]، كما بلغه رسول من الدير العثمانية يحمل له الباشوية في سنة 1704م، فأصبح يلقب إبراهيم باشا باي داي.[4]

يوصف عهد إبراهيم الشريف (1702-1705م) بكثرة الظلم والإستبداد الذي سلط على الأهالي من قتل وسلب وتشريد على يديه، وعلى يد جند الترك الجائرين، وذلك لشدة بغضه للعرب، ولم تحل سنة 1704م حتى شن حربا على طرابلس لأسباب شخصية ضد واليها، وفي سنة 1705م شن حربا ثانية ضد الجزائر، حيث إنكسرت جيوشه فيها.[5]

---

[1] أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ج 2، ص ص 95-96.

[2] نفسه، ص ص 95-98.

[3] الوزير السراج، المصدر السابق، ص 676.

[4] نفسه، ص 695.

[5] رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس (1782-1814)، رسالة دكتوراه، تخصص: الفلسفة، إشراف: C. zurayk, J. Malone، الجامعة الأميركية في بيروت، لبنان، د.ت.ط، ص 52.

Scanné avec CamScanner

لم يبق لإبراهيم الشريف مهربا حتى وقع أسيرا في 09 جويلية 1705م، وكانت مدة حكمه ثلاث سنوات وشهرين وخمسة أيام، أما أخوه سلم مدينة الكاف مقابل إعطائه الأمان بعد ما تيقن من أسر أخيه، إلا أنه أسر مع أخيه ونقل إلى الجزائر.[1]

وعند وصول خبر الإنهزام إلى الحاضرة تونس فزع أهلها من أن يهاجمهم عدوهم وهم بدون أمير يدافع عنهم فطالب الأهالي والجند ليكون الحسين بن علي حاكما للبلاد، كما إتفق أهل الحل والعقد على مبايعته لما يعلمونه عنه من خصاله السمحة وحزمه في الأمور وتدرجه في مناصب عدة، وكان في ذلك الوقت نزيل زاوية الشيخ أبي عبد الله حسين السجومي خارج الحاضرة، إرتحل إليه أهل الحل والعقد ومعهم عدد من أهل الحاضرة ليعرضوا عليه بيعتهم فإمتنع، فقال له الأشراف من العلماء يجب عليك القبول وخاصة أن البلاد على هذا الحال فأجاب دعوتهم ودخل الحاضرة.[2]

ويمكن القول بأن فترة البايات المراديين (1640-1705م) تميزت بسلطة الباي وانتزع النفوذ من الباي وغرقت البلاد في سنوات طويلة من القتل والظلم والتشريد بسبب الفتن والحروب الأهلية ،ومن مظاهر الازدهار في الزراعة والصناعة راجع إلى دور المهاجرين الأندلسيين اضافة إلى تزايد عدد الأتراك الذين امتزجوا مع السكان، إذ كان دورهم كبير في تنشيط القرصنة، وكان نتيجة هذا الازدهار اغتناء البايات والتجار الكبار الذين موّلوا بدورهم المشاريع العمرانية الضخمة ومنّها الجوامع والمساجد والمقامات والقناطر مثل جامع حمودة باي وصومعته وجامع مدينة قابس والمسجد الحنفي بتونس، وكذا المدرسة المرادية، كما أنشأوا الأسواق وجلبوا

---

[1] أبو عبد الله المسعودي، الخلاصة النقية في أمراء أفريقية، مطبعة بياكروشركانه، تونس، 1323هـ، ص 115.

[2] أحمد ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج 2، ص 103.

Scanné avec CamScanner

المياه لتونس، اضافة إلى التغيرات التي أحدثوها في الجيش والإدارة كما قضى المراديون على عدة عروش من البدو لأجل الأمن.

ملخص :

نخلص إلى القول في نهاية هذا الدرس إلى أن مرحلة البايات المراديين قد شهدت صراعات وفتن داخلية خاصة بين أفراد الاسرة الحاكمة ، وهذا ما كان له تأثير على الواقع الداخلي لتونس ، مما فتح المجال أمام الحسينيين الذين بدأو في فرض سلطانهم على الادارة والجيش نهاية القرن السابع عشر وتمكنوا من تأسيس حكم جديد عرف بالبايات الحسينيين.

مصادرومراجع الدرس :

1. عزيز سامح ألتر :الاتراك العثمانيون في شمال افريقيا ،ط1، ترجمة محمود علي عامر،دارالنهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1989،ص323.

Scanné avec CamScanner

2. شارل اندري جوليان : تاريخ شمال افريقيا تونس الجزائر المغرب الاقصى من الفتح الاسلامي الى سنة 1830، الجزء2، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر والتوزيع ، تونس ، 1978

3. عبد الوهاب حسن حسني ، خلاصة تاريخ تونس ،دط ،الدار التونسية للنشر تونس ، 1983

4. محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1981م،

5. محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ماقبل التاريخ الى الاحتلال ، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة ، ط3، دار سراس للنشر، تونس ، 1993

6. أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، 8ج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الدار التونسية للنشر، الجزائر، تونس، 1974م، ج2،

7. الباجي المسعودي: الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تق وتح وتع: محمد زينهم، محمد عزب، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، 2013م 1 رشاد الامام ، المرجع السابق ،

8. أبي دينار أبو عبدالله، المؤنس في أخبار إفريقيا والأندلس، دار المسيرة، لبنان ، ص 1993.

9. محمود مقديش :نزهة الانظار في عجائب التواريخ والاخبار ، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ،ط1،دار الغرب الاسلامي ،بيروت ، مج1988،2.

Scanné avec CamScanner

10. **A.Masmoudi et M Smaida ,tunis au XXI de la chute des hafside a'linstallation des turce ,socites tunisienne de diffusion,tunis,1983**

الدرس التاسع : عهد الاسرة الحسينية

مقدمة :

بعد وفاة مراد بوبالة الذي عرف فترته حكمه توترات وصراعات داخلية ، كان لها تأثير كبير على النظام الداخلي لتونس ، وبوفاته انتهى عهد الدولة المرادية ليخلفه ابراهيم الشريف الذي

Scanné avec CamScanner

عرف عهده ايضا بالظلم والجور والقسوة ، وعلى الرغم من ذلك برزت شخصيات سعت الى اعادة التوازن للبلاد ومنهم الحسين بن علي مؤسس الاسرة الحسينية بداية القرن الثامن عشر .

نظام الحكم الحسيني في تونس

نظرا للاضطرابات التي عمت تونس بداية القرن الثامن عشر تدخل أعيان مدينة تونس لاقتراح الحسين بن علي دايا على تونس وذلك بحكم ما كان يتمع به من خبرة ادارية وحكنة سياسية ، وقد كان من أصل أرناؤوطي وقيل أنه كورغولي ، استطاع أن يحقق الامن والاستقرار في البلاد لعقدين من الزمن ، ويعيد تنظيمها بالاعتماد على العناصر التي جاءت به إلى الحكم ، ومكن من توريث الحكم لأسرته وبشكل جعلهم يسمون الاسرة الجديدة بإسمه أي الاسرة الحسينية التي حكمت إلى غاية 1957.[1]

ويذكر محمود مقيدش عن الحسين بن علي بأنه حسن التدبير والسياسة خاصة وأن سيد عبد الواحد الدكالي قد بشر به فقال عنه :وأما تونس فمن حيث يموت سبطها المسمى باسم ولد فاطمة وعترته لا خير فيها ،آه ،آه ،آه ،على أهل افريقيا بعد السبط حسين ، ولا يأتي امير أحسن منه الى انقراض الدنيا .

[1] محمود مقيدش :مصدر سابق ،156.

Scanné avec CamScanner

ويذكر الباجي المسعودي في كتابه إلى أن الحسين بن علي نشأ في خدمة الأمراء المراديين وتقلد الولايات الجليلة تسلم الخطط الرفيعة كخطة الخزندار وكاهية دار الخلافة وولاية الاعراض والجريد وآغا الصبايحية الترك.[1]

وقد أنتخب حسين بن علي من طرف العلماء والأعيان والعسكر، وأكد عند مبايعته على أمرين هما تحرير البلاد من القوات الجزائرية (طلب تجديد البيعة مرتين) الأولى بعد مواجهته للقوات الجزائرية والثانية محاربته للداي محمد خوجة الأصفر الذي سعى لإعادة سلطة الدايات، وقد تولى الحسين بن علي عدة مناصب قبل اعتلاءه الحكم وهو ما زاد في معرفته لأمور السلطة والحكم ولهذا اتفقت كل المصادر بأنه الرجل المناسب لتونس في هذه المرحلة ومن المناصب التي تولاها خزندار في أمانة أموال الجبايات وآغا الصبايحية.

ويذكر صاحب بأن المؤسس كان متزوجا من عربية لم تنجب له الاولاد الذكور ، فقرب إليه حفيد أخيه عليا وأخذ يهيئه لولاية العهد ، غير أن الباي أهديت له جارية إيطاليه حسناء من جنوة أسرت مع بعض قومها فتزوجها وولدت له محمد الرشيد وثلاثة أبناء آخرين .[2]

وقد نشبت نار فتنة داخلية أهلية من جديد والتي سعى من خلالها محمد الأصفر الذي كان يتميز بنزعته التركية الخالصة ، إلى التحالف مع ابراهيم الشريف الذي كان الجزائريون قد أطلقوا صراحه ، مما أدى إلى قيام ثورة داخلية انتهت بانتصار الحسين بن علي وقطع رأس الداي محمد خوجة الاصفر سنة1706م ،ونفس المصير لقيه حليفه ابراهيم الشريف .

---

[1] **الباجي المسعودي ، المصدر السابق ، ص 115.**

[2] **أحمد طويلي : في الحضارة العربية التونسية ، دراسات حضارية في العهد الحفصي والحسيني ، دار المعرف للطباعة والنشر ، تونس ،دت ، ص135.**

Scanné avec CamScanner

والملاحظ بأن السلطنة العثمانية قد بعثت بفرمان التولية من اسطنبول في شهر جوان 1706 ،مما يؤكد عدم قدوة الباب العالي على التدخل في المشاكل التي عرفتها تونس في هذه المرحلة ، بالنظر للظروف الداخلية الخارجية مما سمحت هذه الظروف للحسين بن علي من توطيد سلطته وبسط نفوذه الداخلي على الايالة .

و تمكن الحسين بن علي من الاعتماد على العناصر الأهلية ، كما أن الباي الجديد وجد مساندة مميزة من الطائفة الانكشارية التي أيدته ووقفت إلى جانبه باعتباره الظامن الاكيد والمساند لمصالحهم الاقتصادية الحيوية في الايالة ، والتي في نفس الوقت أصبحت مهددة في ظل مؤسسة الداي التي تفتقر إلى الموارد المالية لدفع رواتب الجند ، والتي تؤمنها مؤسسة المحلات المكلفة بجمع الضرائب وهي هيئة تابعة للباي .ومما زاد من تخوف الانكشاريين سياسة الباي الجديد والتي سمحت للكراغلة من الوصول إلى بعض المناصب وتقلص مناصبهم السياسية في ظل سياسة الباي الجديدة ، كما أن عددهم بدأ في التناقص شيئا فشيئا خاصة بعد وباء الطاعون الذي ضرب البلاد .وتميزت فترة حسين بن علي بإنتقال تونس من دولة قراصنة ومغامرين من جند الترك إلى دولة منظمة ومرتبة.

ومن الفتن التي عصفت بالبلاد المواجهات التي بين الباي حسين بن علي وابن أخيه علي باشا ، الذي بدأ يتخوف منذ أن أسند الحسين بن علي ابنه محمد الرشيد قيادة المحلة ومن هنا بدأ علي باشا يفكر في طريقة لاسترجاع العرش [1]. لذا لجأ إلى جمع المناصرين ووقف إلى جانبه المعارضين لسياسة عمه ،ومما زاد في توسيع الهوة أكثر بن الباي وابن عمه ، قيام الباي سنة

1ألفونص روسو، المرجع السابق، ص ص 230-231

Scanné avec CamScanner

1826 بتعيين ابنه محمد الرشيد على رأس الجيش بدل ابن أخيه ،ولما غير رأيه ساد عهد من الاضطرابات وعمت الفتن وشملت الحرب الاهلية كامل البلاد شرقها وغربها وشمالها وجنوبها ، وذاق الاهالي منها الامرين دهتهم الدواهي واشتد التنكيل بهم ولم ينج من النهب وهتك الستر أحد .[1]

وتعتبر سنة 1728 بداية الفتنة والحرب الاهلية الداخلية في تونس ، ولكي يؤكد الباي نيته في اعلان ابنه بأنه الوريث الشرعي ، استشار أهل الديوان وأعلن لهم إلغاء ولاية العهد من ابن أخيه الذي استمال إليه عدد من القبائل والطوائف التي لم يكن النظام يحسن معاملتها مثل سكان جبل وسلات وأولاد عيار وغيرهم وقد سموا في تلك الفترة باشية ، وقد أحدثت هذه الحروب انقساماً داخل البيت التونسي، إلى الحسينيين المؤيدين لدعوة حسين بن علي وأولاده والباشية وهم الداعون إلى أحقية العرش لعلي باشا[2]،ومن أبرز المدن التي أيدت الحسين بن علي هم : القيروان ،المهدية ، صفاقس ، المنستير ،قرى الساحل ،سوسة ، ومن العربان نجد قبائل دريد ،جلاص ،اولاد عوف ،أولاد سعيد ،همامة ، أما المدن التي كانت تؤيد الباشيين هي مساكن ، القلعة الصغرى ،زاوية سوسة ،جبل الوسلات ، قبائل ماجر ،الفراشيش ،أولاد عيار وغيرهم .[3]

ولما لجأ علي باشا إلى جبل وسلات فرض عليه الباي حصارا كبيرا على ضواحي الجبل ،فقضى الباي على هذا التمرد الداخلي ، الذي وقفت فيه القبائل إلى جانب الباي ، إذ استطاع

---

[1] أحمد طويلي ، المرجع السابق ، ص 136.
[2] بلقاسم بن محمد بن جراد ،مرجع سابق ،ص101
3ألفونص روسو، المرجع السابق، ص 183

Scanné avec CamScanner

علي باشا الهروب نحو الساحل ومنها نحو الحدود الجزائرية أين وجد مساعدة من طرف داي الجزائر عبدي باشا [1]، وقد تعهد الحسين بن علي للداي عبدي باشا بدفع كل سنة مبلغا ماليا قدره 50000 بياستر ، شريطة أن يبقى علي باشا تحت الرقابة الجزائرية ، فقبل داي الجزائر هذا العرض وكان هذا الاتفاق سنة 1728 ،وفي سنة 1733 توقف الباي التونسي عن دفع المبلغ المتفق عليه مع الجزائر ،فقام ابراهيم باشا بإرسال رسائل تحمل التهديد والوعيد ، وهنا كان أنصار علي باشا في الجزائر يحاولون بشتى الطرق حمل الداي على معاقبة الباي التونسي ، إذ استطاعوا في الاخير اقناع داي الجزائر على الخروج بحملة عسكرية بعدما وعد علي باشا داي الجزائر بإلحاق تونس له في حالة سقوط العاصمة التونسية .[2]

ولما علم الحسين بن علي بقدوم الجيش الجزائري عرض على داي الجزائر – بواسطة باي قسنطينة إعطاءه مبلغ 50 ألف قرش عثماني إذا ما عاد من حيث أتى جيشه ، غير أن هذا العرض وصل متأخرا ، إذ بدأ القتال بين الجيشين ورغم تدخل الباب العالي الذي أمر داي الجزائر بإعتبار علي باشا عدوا، غير أن داي الجزائر لم يستجب للأوامر الباب العالي نافيا وصول أي مبعوث من الباب العالي ،ولما علم الباي حسين بن علي بإقتراب الجيش الجزائري خرج لملاقاتهم بجميع قواته وقد شارك في هذه المواجهة نجلي علي باشا سليمان وأخيه يونس .[3]

وبعد استلاء قوات علي باشا على عدة مناطق من مدينة تونس رغم سعي أولاد الحسين بن علي استعادة الحكم بمساعدة داي الجزائر ابراهيم باشا الذي أبدى استعدادا لمساعدة أبناء

1أحمد ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج 2، ص 133
[2]الفونسو روسو ، المرجع السابق ، ص177
[3]الفونسو روسو ، المرجع السابق ، ص178

Scanné avec CamScanner

الحسين بن علي – محمد باي وعلي باي ومحمود باي – في العودة إلى الحكم ، الا أن داي الجزائر كان منشغلا بالمشاكل الداخلية في تلك الفترة ، خاصة رغبة الاسبان سنة 1732 في العودة إلى احتلال مرسى وهران مجددا ، ضف إلى ذلك عودة فرنسا إلى تهديد الجزائر بالحرب [1].

وفي سنة 1755 تحرك جيش جزائري بقيادة حسن باي – عامل قسنطينة-ومعه علي باشا بن الحسين أحد أبناء الباي الحسين بن علي ، الذي ظل محاصرا عليه في القيروان من طرف أبناء علي باشا ، واستطاع هذا الجيش الوصول إلى الحدود ، غير أن هذه الحملة عادت أدراجها نظرا لتتدخل أنصار علي باشا في الجزائر وتحججوا بأن هناك عدة صعوبات تعترض الحملة في حال اجتيازها الحدود ، كما بينوا للداي مدى الصداقة واخلاص النوايا الحسنة التي يحملها علي باشا للجزائر .

غير أن علي باي بن الحسين استطاع إقناع عامل قسنطينة بضرورة مواصلة الحملة ، وواصلت هذه المحلة اندفاعها نحو الامام وانقلب الانهزام في البداية الى انتصار حققه باي قسنطينة بمساعدة أبناء الحسين بن علي ، فقي 31أوت 1756 تم احتلال مدينة تونس والقبض على علي باشا وابنه محمد باي وتم قطع رأسيهما ، ومنذ تلك المرحلة عاد الحكم في تونس إلى محمد بن الحسين بن علي .[2]

وهكذا مكنت حرب 1756 من عودة ابناء الحسين بن علي للحكم في تونس من جديد بقضل دور الجزائر الكبير في القضاء على نفوذ وسلطة علي باشا الذي كان لايساير رغبات الجزائريين

---

[1] **نفسه ، ص183**

[2] **الفونسو روسو ، المرجع السابق ، ص213**

Scanné avec CamScanner

وسياستها بالرغم من دور الجزائر الكبير في وصوله للحكم سنة 1735،وفي نفس استطاعت الجزائر بعد حرب 1756 من إعادة سلطتها من جديد في تونس بفرض شروط جديدة على ابناء الحسين بن علي خاصة مسألة الضرائب السنوية وتعويضات مصاريف الحملة والهدايا المقدمة لدايات الجزائر .

كما تميز عهد الحسين بإزدهار اقتصادي خاصة الصناعة والتجارة والزراعة ، هذه الاخيرة أولاها أهمية بالغة ، فعمل على احتكار الفائض من الانتاج الزراعي لصالح الدولة بواسطة تشجيعه للفلاحين الذين خفف عنهم الضرائب وقدم لهم حوافز وامتيازات من أجل زيادة الانتاج ، كما خص منتجي الحبوب بالرعاية نظرا لأهمية هذا المنتوج الموجه للتصدير ، لذلك وجه تعليمات من أجل استغلال الفائض من انتاج هذا المنتوج ، وإعادة بيعه نحو أوربا بأثمان باهضة والتي كانت تعاني من موجة شديدة من الفقر بفعل العوامل الطبيعية . إضافة إلى المعاهدات مع فرنسا وإنجلترا وإسبانيا والنمسا وهولندا، وكذا العلاقات الحسنة مع الباب العالي[1].

كما توفرت السلع وانخفض ثمنها وكثرة التجار واستقامتهم ، وعمرت الفيافي والقفار ،فضلا عن المدن والقرى والمداشر ، وأمنت الطرق وأصبح الناس في أمن وأمان ، وخضع اهل البغي والفساد من الاعراب واللصوص والمفسدين ،بسبب حزم في تطبيق القوانين وتوفر الامن [2]، وهذا ما نعكس ايجابا على الجانبين الاجتماعي والثقافي ، حيث أعاد بناء القيروان بعد

---

[1] رزيقة محمدي، المرجع السابق، ص 97.

2 محمود مقديش ، المصدر السابق ،ص158

Scanné avec CamScanner

الدمار الذي أصابها وشيد بها المدارس والزوايا وانشأ مدرسة الحسينية قرب جامع الزيتونة سنة 1714 وكذلك جامعه الشهير ، كما بنى مدرسة في نفطة وصفاقس والقروان وأعاد بناء مدرسة سوسة وبنى مسجد جبل المنارة [1]، وليشجع على التعليم خصص مرتبات للمعلمين والمشائخ القائمين على المدارس ، ووفر لطلبة العلم كل ما يحتاجونه من أدوات وأيضا وضع لهم رواتب تساعدهم على اقتناء ما يحتاجونه[2].

كما أنّ نشاط القرصنة كان محدوداً، مما جعل فرنسا تحاول غزو البلاد مرتين سنة 1731/1728م، ولقد توقفت هذه المسيرة سنة 1729م ليبدأ عهد الفتن والحروب والثورات الداخلية، هذه الثورات التي أشعلت نار الفتن مدة تزيد عن العشر سنوات أحدثت اضطرابات وكبدت البلاد خسائر فادحة مادية ومعنوية، وأدت إلى تدخل داي الجزائر، مما أدى إلى نهاية تلك الحروب بإنتصار علي باشا الذي حاصر الباي في مدينة القيروان مدة خمس سنوات، كانت نهايتها هزيمة حسين باي وقطع رأسه في ضواحي القيروان سنة 1840م.

وعلى العموم فقد تمتع التونسيون في ظل حكمه بعهد تسوده السكينة التي طالما تشوقوا إليها في أعقاب سنوات طويلة كدرتها الفتن والحروب الأهلية ، واستطاع أن يقرب إليه الاعيان المحليين الذين تحالف معهم وسمح لهم بتقلد مناصب إدارية وأعاد الاعتبار للمذهب المالكي ورموزه واهتم بالزوايا والعلماء فأمتعهم بالعطايا والاحسانات [3].

1الباجي المسعودي ، المصدر السابق ،ص ص 120–121.

[2]رشاد الإمام، المرجع السابق، ص ص 351–353

[3]أحمد ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج 3، ص 60

Scanné avec CamScanner

علاقته بالجزائر فقد بدأت في مفاوضات مع داي الجزائر الداي عشي مصطفى وجرت مفاوضات بين الايالتين في مرحلتين ، غير أن اصرار داي الجزائر على الابقاء على جيشه في التراب التونسي أدى إلى فشل المفاوضات بين الايالتين ، لتتجدد الحروب والموجهات بين البلدين من جديد والتي انتهت بإنسحاب الجيش الجزائري الذي أنهكته الحروب السابقة ضد ابراهيم الشريف ، كما أن تحول بعض القبائل الحدودية ووقوفها إلى صف الباي حسين بن علي أدى إلى تراجع الجيش الجزائري نحو منطقة الكاف وتقديم تعويضات مقابل عن الخسائر .ونتيجة هذا الانتصار استطاع حسين بن علي تثبيت سلطته على حساب العناصر خاصة بعد استرجاع منطقة الكاف ، فقضى بذلك على خصومه خاصة ابراهيم الشريف الذي أطلق سراحه الجزائريون سنة 1706 كما ذكرنا سابقا ، وكذا القضاء على سلطة محمد خوجة الاصفر لتخضع مؤسسة الداي للباي كلية فأصبحت مهاهم أعمال ثانوية[1].

ولمّا تولى علي باي بن محمد بن علي اعترف بفضل داي الجزائر عليه، بإعلان تبعيته له وتأديته للجزية، وأمّا علاقته مع الدول الأوربية فقد أكد مراراً على استقلال بلاده وعزمه على البقاء حراً في بلاده، لهذا سعى لقطع العلاقات مع فرنسا سنة 1741م[2].

وقد سعت الشركة الفرنسية المرسيلية إلى احتلال مرسى طبرقة من أجل توسيع تجارتها في المتوسط، وكذا للتحكم في الباي ثمّ في تجارة جميع بلدان شمال إفريقيا مع أوروبا[3].

---

[1] محمد الهادي الشريف، المرجع السابق، 82

2رشاد الإمام، المرجع السابق، ص ص 58-60.

3 الفونسو روسو، المصدر السابق ،ص 189

Scanné avec CamScanner

وقد قام علي باشا بعدة إنجازات أهمها اهتمامه ببناء المدارس وخزائن الكتب وقرّب العلماء والأعيان ، كما أشتهر بحبه للعلم، غير أنّه في السنوات الأخيرة من حكمه حصلت فتن وحروب بسبب الثورة التي قام بها ابنه ضده سنة 1751م، إذ استغل الجزائريون الفرصة وتدخلوا في البلاد فعاثوا فيها فساداً وبطشاً وخنقوا علي باشا سنة 1756م ونصّبوا مكانه محمد باي أحد أنجال مؤسس الأسرة الحسينية(حسين بن علي) الذي إلتزم بعلاقاته الودية مع الجزائريين والإبقاء على دفع غرامة سنوية كبيرة لهم ،وقد استطاع محمد باي فرض الأمن والأمان في البلاد والسيطرة على مقاليد السلطة، وكذلك اختصه المؤرخون بالثناء والمدح لسياسته ومعاملته سواءً للأهالي والأجانب لذا أطلق عليه إسم الرشيد وبدت الامور تنبئ عن الدخول في عهد مزدهر، غير أن المرض ألم به و أدى إلى وفاته في 11 فيفري 1759م[1].

ثمّ تولى بعد محمد أخوه علي باي(1759-1782)م والذي عرف بأخلاقه العالية وبسلوك يتسم بالاستقامة وبكفاءة عالية في الشؤون الحربية والادارية الامر الذي هيئ للإيالة التونسية اسباب السكينة التي سادتها تحت حكمه ،وكما نظم الجيش والبحرية ، كما حظيت الزراعة والصناعة برعاية كبيرة في هذا العهد ، وفي نفس الوقت غصت الخزينة بالأموال ولاحت في الافق بوادر الرخاء والازدهار ،

أما خارجيا فقد ظل علي باي يحرص على الوفاق التام مع الاوربيين ، إذ سعى إلى البحث عن كل الطرق من أجل اعادة الاستقرار للبلاد وإخراج الايالة التونسية من الوضع الحرج الذي وجدها مترديةٍ فيه ، وأن يوثق بأسلوب حكيم عرى العلاقات الرسمية التي كانت تربط

---

[1] ألفونص روسو، المرجع السابق، ص 171

Scanné avec CamScanner

حكومته بمختلف الدول الاوربية ، بواسطة اللجوء إلى عقد معاهدات جديدة معها، إذ مع فرسا سعى إلى ربط علاقات متميزة خاصةً في الجانب التجاري، إذ أقر امتياز صيد المرجان لفرنسا، وكذا وافق على فتح وكالة تجارية ببنزرت سنة 1768م، وفي هذه السنة تأزمت العلاقة بين البلدين بسبب إقدام فرنسا على ضمّ جزيرة كرسكة والتي لم تعترف بها تونس، مما أدى إلى قيام حرب بين فرنسا وتونس انتهت بإبرام معاهدة وصلح بباردو سنة 1770م.

وعلى العموم فإنّ فترة علي باي تميزت بنهضة اقتصادية وعمرانية وإصلاحات في ميادين شتى خاصةً في الجانب الزراعي والتجاري سواء الداخلية أو الخارجية.

ونظراً لكبر سنه وكثرة أمراضه بدأ في إشراك ابنه حمودة في الحكم سنة 1777م، وكذا تسلط الجزائريين وضغطهم عليه لعلمهم بمرضه وكبر سنه وثالثاً لتفادي الصراع حكم خاصة ابن أخ علي باي وهو أبو الثناء محمود باي[1]، و بعد أنّ تمت البيعة لحمودة باشا وافقت السلطة العثمانية وبايعه بها ابن عمه أبو الثناء محمود باي ومنحت حمودة لقب الباشا،وبعد وفاة والده تجددت لحمودة باشا البيعة الثانية، وبايعه ابن عمه محمود باي ثمّ العلماء وكبار القضاة وأكابر الجند والأعيان.[2]

تعهد علي باشا قبل وفاته بالتخلي عن العرش لأبناء شقيقة لأنه لم يرزق بولد من زوجته العربية ، غير أنه تخلى عن هذه الفكرة وخالف القاعدة لصالح ابنه حمودة ، الذي كان أصغر سنا من ابني عمه ، ولقد بدأ علي باشا في تحضير ابنه لولاية العرش ، إذ عينه مساعدا له في

---

[1]ألفونص روسو، المرجع السابق، ص ص 230–231

2بشرى ناصر هاشم الساعدي، ميساء لؤي عبد الله، المرجع السابق، ص 214

Scanné avec CamScanner

تسيير شؤون الايالة ، كما بدأ حمودة في اكتساب الخبرة في التسيير [1]، خاصة وأنه كانت لديه كفاءة عالية في الاقناع وهو ما أدى الى توطيد العلاقة مع فرنسا بعد معاهدة الصلح التي عقدت سنة 1770 ، ومنذ سنة 1770 شرع في ممارسة بعض شؤون الايالة ، إذ عينه والده للنظر في القضايا المعروضة على الباي كما قاد المحلة بنفسة سنة 1777[2].

ولكي لا يوجد عداوة بين ابنه وأبناء عمه زوج علي باشا محمود باي والذي كان الاكبر سنا والاحق بالولاية والعرش من احدى بناته حتى يضمن أنه لن يعارض على تقديم حمودة إلى الولاية منه ،ولقد وافق محمود باي على تقديم حمودة عليه نظرا لكفاءته وخبرته وأيضا لأن محمود باي كان يعاني من مرض عضال ، فنصب علي باشا ابنه لمباشرة الامور عنه في سنة 1770- البيعة الاولى – كما راسل علي باشا السلطان العثماني سليم الثالث لإضفاء الشرعية على تولية ابنه حمودة باشا عرش تونس [3].

أما أعماله وانجازاته فقد أبقى على وزراء أبيه في مكانهم، وخاصةً مصطفى خوجة الذي يتميز بخبرة فائقة في التسيير منذ حكم أبيه علي باشا، وبذلك حافظ حمودة على الشخصية الأولى في الوزارة، وتذكر المصادر بأنّ ثلاثين سنة التي بقي فيها هذا الوزير في الحكم تقدمت البلاد التونسية خطوات كبيرة في طريق التمدن والتقدم، مع ازدهار ثروة البلاد التي ليس لها مثيل في تاريخ تونس الحديث ، ولا ننسى الدور البارز لمصطفى خوجة[4] الذي كان يقوم به في

---

[1]أحمد بن ابي الضياف ، المصدر السابق ،ج3،،ص11

2رشاد الامام ، المصدر السابق ،ص77

3كمال مايدي، علاقات تونس مع دول غرب أوروبا الغربية المتوسطية وتأثير البحرية في عهد حمودة باشا (1782-1814)، مذكرة الماجستير، تخصص: التاريخ الحديث، إشراف: عمار بن خروف، المركز الجامعي بغرداية، غرداية، 2012/2011، ص124

[4]بلانتي ، المصدر السابق ، ج3،ص120

Scanné avec CamScanner

عهد حمودة باشا خاصة وأنه يهيئ ذلك التفاهم الكامل في العلاقات بين حمودة وأبناء عمه محمد باي والرشيد ويمنع أيضا إنزال المظالم على الاهالي الدواخل ، وكذا دوره الكبير في رسم العلاقات السلمية مع الجزائر ويخفف من حدة مطامع الجزائر والاستانة في الايالة ،وحرصه على استمرار العلاقات الطبية بين تونس والدول الاوربية ، ولذا فإن الكثير يعتبر بأن سقوط مصطفى خوجة يعني بالضرورة سقوط الايالة داخليا وخارجيا فريسة لأخطر التعقيدات والمشاكل.[1]

قضى على الخلافات التي بينه وبين أفراد عائلته، رغبة منه في ابعاد الفتن والمحن عن بلاده، إذ استعمل الود وحسن التعامل من جهة والقوة والبطش والعنف ضدهم، خاصة تقريبه لابن عمه محمود وإخوته، فتمكن حمودة من ضمان ابن عمه إلى صفه، وبهذا أبعد كل من يتربص به خاصة من الجزائر التي كانت دائماً تتدخل بدعوى مناصرة أصحاب الحق الشرعي في الحكم.

تمكن من اصلاح الإدارة وإبعاد الأتراك من المناصب الحساسة في الدولة، خاصة من الإدارة والجيش، إذ بدأ بالسلطة وجعل الحكم حكماً مطلقاً بيده، وقرب إليه القادة والوزراء غير الأتراك، إذ أزاح الأتراك شيئاً فشيئاً فكان اصلاحاً إدارياً شاملاً (تنحية العنصر التركي وإزاحته من تأثيره ومسؤولياته في البلاد).

---

[1] **الفونسو دوروسو ، المرجع السابق ، ص261**

Scanné avec CamScanner

ومن سياسته أيضا أنه عين التونسيين والنصارى واليهود والمماليك في تلك الوظائف مكان الأتراك[1] (في نظره أنّ الأتراك أقرب للجزائر منهم إلى التونسيين).

ومن اصلاحاته الادارية تفضيله للشباب ليحلوا محل الشيوخ في الوظائف، وكذا إقدامه على السماح للإداريين وأصحاب النفوذ والسلطة من الوزراء والأعيان بالزواج لكي لا يبتعدوا عن خدمة البلاد ويتفرغون لعائلاتهم والابتعاد عن واجباتهم الإدارية، كما حدث مع وزيره مصطفى خوجة

وأيضا مراقبة القياد الذين كانوا يضطهدون الشعب دون معاقبة فقد سعى حمودة باشا إلى تقييدهم ومراقبة أعمالهم والإشراف عليها بعيون تخبره بكل شيء يقومون به، فكان بذلك يشرف على شؤون الدولة الداخلية والخارجية بجميع جزئياتها.

كما قلص عدد كبار المسؤولين عن الإدارة والحكم، وهو الأمر الذي تفادى به حمودة باشا المشاكل والتعقيدات الموجودة في البيروقراطية الأوروبية مما يجعل الخزينة تتقلص، وأنقذ الخزينة من مصاريف زائدة وإضافية، ومن الفوائد الإصلاح الإداري أيضاً أنّه كلما تقلص عدد المسؤولين سهل عليه مراقبتهم(اكتشاف أي ظلم واستبداد).

أما عسكريا اهتم بالجيش اهتماماً بالغاً ورغبته في الاستقرار الداخلي، ومن أهم الأسباب التي جعلته يهتم بجيشه:

---

[1] رشاد الامام ، المرجع السابق ،ص 180-182

Scanné avec CamScanner

تصميمه على التخلص من النفوذ والتسلط الجزائري على تونس ونيل استقلاله من داي الجزائر، والأمر الثاني ما حدث سنة1794م عندما تدخلت الدولة العثمانية في شؤون طرابلس الغرب(ليبيا) وتعيينها لعلي برغل [1]الذي إحتل طرابلس وجزيرة جربة التونسية، وهي المسألة التي تدخل فيها حمودة باشا وأنهاها باحتلال طرابلس وإرجاع الحكم إلى أصحابه بعد إجلاء علي برغل عنها، كما بلغت مصاريف الجيش تكاليف باهضة وميزانية هائلة(وتذكر المصادر بأنّ هذه الأموال تصرف على الجيش إنّما مردها لرغبة حمودة باشا في الاستعداد لمجابهة الجزائريين).

استيائه من الجند الأتراك إذ رأى بأنّ نفوذهم في تزايد، وفي نفس الوقت ممارساتهم تجاه الشعب مما جعله يعمل على ايجاد مخرج لهم كأن يُشغلهم بعمل خارج البلاد حتى يحافظ على الأمن والاستقرار الداخلي، وكذلك يُسكت غضب الأهالي ويهدئ من كرههم لهم، كما أصدر حمودة باشا ما يُعرف برسالة في السياسات الشرعية، إذ أمر قاضيه بيرم الأول أنّ يُصدر قانوناً شرعياً يُمكن الباي من إلقاء القبض على من تحوم حوله الشبهات بمجرد الظن.

ومن أهم إنجازاته العسكرية أيضاً تعزيز الجيش بعناصر معظمهم من التونسيين، ومرد ذلك أنّ حمودة باشا يسعى إلى التخلي شيئاً فشيئاً عن الجنود الأتراك وهذا خوفاً من التمرد عليه، وأيضاً أنشأ عناصر من الزواوة في الجيش وقربهم إليه(كره الزواوة البربر للعناصر التركية) ومن التشكيلات التي اهتم بها حمودة باشا في جيشه ضد الأتراك والجزائريين

---

[1] علي برغل :علي افندي اصله من جورجيا ،لقب بعلي الجزائري وعاش فترة طويلة في الجزائر ،شارك في عدة حروب ضد الاساطيل الاوربية ،عمل كوكيل خرج البحرية الجزائرية ،طرد من الجزائر وتوجه نحو القسطنطينية ،فحصل على موافقة السلطان العثماني ليكون علي باشا .

Scanné avec CamScanner

(المتطوعون من القبائل والمتطوعون من الشعب وكذا عناصر المخزن(عساكر الخيالة غير نظامية)) وهناك أيضاً عناصر أخرى مثل الكراغلة والمماليك الأوربيين الذين أسلموا واستقروا في البلاد، حيث استطاع بهذا الجيش وتشكيلاته من الانتصار في حربه على الجزائر سنة1807م[1] والانتصار على علي برغل في طرابلس سنة 1794م وقضائه على نفوذ الجنود الأتراك نهائياً.

كما اهتم حمودة باشا بتسليح جيشه بأحدث الوسائل الحربية الأوربية من أجل تحقيق هذا فقد سنّ قوانين تسمح بدخول كل أنواع أسلحة أو ذخيرة حربية[2]، كما أنّ فرض على فرنسا وبريطانيا دفع أسلحة وذخيرة حربية مقابل القمح والحبوب من تونس.

كما أنشأ حمودة باشا مصانع حربية عصرية في تونس، وهي معامل أنشأها من التهيؤ للدفاع عن البلاد من تسلط الجزائريين واستبداهم وأخذ استقلاله منهم، منها:

بناء مصنع سنة 1787م لصناعة البارود ، كما أنشأ مصنعاً لصناعة المدافع وقذائفها سنة 1795م ، إهتم أيضاً بصناعة السفن الحربية بحلق الوادي بالاعتماد على خبرات الفرنسيين في صناعة السفن ، كما اهتم أيضاً بإصلاح الموانئ وبناؤها على أسس عصرية، إذ تمثلت سياسته الاصلاحية في أهم ميناءين عسكريين هما ميناء حلق الواد وميناء غار الملح ، وقام أيضا بناء الأبراج والأسوار، ونجد بأنّ حمودة باشا سعى إلى تحضير كل ما يستلزم قبل مواجهة الجزائريين، حتى أنّ الجزائريون عبروا عن قلقهم تجاه إجراءات حمودة باشا، وأبدت تخوفها من النمو العسكري السريع والنتائج التي ستترتب عنه.

---

[1] الفونسو روسو ، المصدر السابق ،ص 279.

[2] نفسه ،ص ص 257-276

Scanné avec CamScanner

كما استعان حمودة باشا بخبرة الأجانب، وكذا خبرة بعض التونسيين مثل محمد العربي زروق [1].ولضمان الأمن والاستقرار أقدم حمودة باشا على عدة طرق واجراءات لضمان الأمن لشعبه ومنها:

*وضع حد لفوضت الأتراك وجندهم بتونس، حيث سعوا إلى الفوضى واضطهاد القناصل ومحاولة اغتيالهم، كما ضربهم بيد من حديد مملئ السجون بهم لإيقاف الفوضى عند حدهم وكذا نفي بعضهم وتعذيبهم وقتلهم، مما أدى إلى نقص جرائم هاته الفئة حتى انتهت وتوقفت بعد القضاء على ثورتهم عام 1811م.

*ايقاف نشاطات السوداء المسيئة للأوقاف والأخلاق في تونس، إذ أصبحت هذه الفئة هيئة اجتماعية ذات تقاليد وأنظمة وإدارة ومحاكم خاصة بهم، إذ أصبحوا بؤرة للفساد تهدد المجتمع التونسي وتقاليده.

* كما عزز حمودة باشا قوة الشرطة من أجل نشر الاستقرار والأمن في البلاد.

* كما كان حمودة باشا يصدر أوامر وأحكام للحد من الجرائم، فأصدر أوامر لتنظيم الباعة اليهود المتجولين وحمايتهم من الاغتيال.وتوظيفهم في مناصب هامة حيث تمكنوا من تنشيط التجارة فيها .[2]

، وشدد في عقاب المجرمين والسراق، كما كان حمودة باشا يتفقد أحوال أمن عاصمته ليلاً بنفسه.

---

[1] محمد حسني عبد الوهاب ،المرجع السابق ،ص 130-131

[2] بيرم الخامس ، المصدر السابق ،ص372

Scanné avec CamScanner

ومن الناحية الاقتصادية تميز عهده بمظهرين منذ وصوله للحكم أنه وجد الخزينة في حالة مزرية ،وكذا انتشار القحط والأوبئة والمجاعات في تلك الفترة ، ولذا شجع على زيادة الإنتاج وتحسينه، وحارب البطالة وحثه المتواصل على العمل ، كما أصدر قوانين جديدة لوضع حد للفوضى في مجال الضرائب.[1]

كما شجع الصناعات المحلية كالاهتمام باللباس المحلي وتقديم الهدايا المحلية مقابل الأجنبية، ولا ننسى هناك دور الأندلسيين الذين ساهموا في ترقية الصناعة المحلية.

وفي عهده تنوعت الصناعة ومنها صناعة الخزف والسجاد والصناعة الجلدية وصناعة الحلفاء، وجميع هذه الصناعات كانت تصدر للخارج بكميات كبيرة، مما يُدر أموالاً طائلة على البلاد، ومن الصناعات المنتشرة في تونس صناعة الشاشية وصناعة النسيج وصناعة الحلي وصناعة العطور.

كما اهتم حمودة باشا بتنشيط التجارة في الداخل، حيث منع التجار الأجانب من الحصول على المحصول مباشرة وإنّما يتم بواسطة تجار تونسيين لضمان ربح المحليين، واهتم أيضاً بطرق القوافل التجارية، وبناؤه لسوق تجارية كبيرة.

شجع التونسيين على تولي شؤون التجارة الخارجية، إذ رأى حمودة باشا بأنّ أغلب السكان يُفضلون الزراعة على التجارة الخارجية وهذا عن طريق إعفائهم من الضرائب، وكذا إعطائهم رخص لتصدير الحبوب أو الزيت، والأمر الثالث تخفيف الرسوم الجمركية على

---

[1] أحمد بن أبي الضياف ، المصدر السابق ،ج3، ص20

Scanné avec CamScanner

التجار والأمر الرابع الاحتكاك بين التجار المحليين والأوربيين، فأصبحت لهم خبرة في التعاملات التجارية كانوا يجهلونها سابقاً[1].

كما سعى حمودة باشا إلى تحاشي الدخول في الحروب مع الدول الأوربية، وتقوية أسطوله وقرصنته لصيانة تلك المعاهدات وضمان أمن بلاده وأسطوله التجاري[2]. وعمل أيضا على زيادة الإنتاج ونشر الأمن في البلاد وتجنبه الدخول في التحالفات والتكتلات والحروب بين الدول الأوربية(الحياد التام)، كما أعطى رخصا بتصدير المنتوجات التونسية لكل الدول الأوربية بما فيها العدوة لتونس، كما أولى أهمية بالغة للمحافظة على أمن التجار الأجانب، إضافة كل ذلك جعل الريال الإسباني أو الفرنك الفرنسي العملتين المعتمدتين في التعامل التجاري مع الدول الأوربية[3].

وفي عهده أيضا شجع حمود باشا التجارة مع الجزائر ودعا إلى توسيعها رغم المشاحنات بين البلدين، إذ أصبحت الجزائر سوقاً كبيراً وموردا هاماً للتجار التونسيين، اضافة إلى القوافل التجارية من قسنطينة تتنقل شهرياً تجلب إلى تونس الغنم والبرانس والعملة للبيع.

1بلانتي ، المصدر السابق ،ص ص409-410

2 لابد من الاشارة إلى مسألة هامة في سياسة البايات الحسينيين منهم حمودة باشا اهتمامهم بالبحرية الحربية أكثر من الاسطول التجاري ، ولهذا فإنجازاته غلب عليها التوجه العسكري ،ربما غبة منه في استعادة المجال المكاني لدولته وفرض سلطانه داخليا وخارجيا .

3محمد الهادي الشريف ، المرجع السابق ،ص88

Scanné avec CamScanner

سياسة حمودة باشا الخارجية:

أ) الحرب على البندقية(1784-1792)م: أعلن الحرب عليها دفاعاً عن دولته وتجارته وكانت الحرب بسبب غرق سفينة تونسية من الأسطول البندقي، ونظراً لعد تعويض البندقية الخسائر لتونس، وأعلنت هذه الأخيرة الحرب على البندقية، ومن نتائج هذه الحرب ، أنّ معاهدة الصلح كلفت البندقية تعويضات كبيرة وهدايا غالية لتونس.

ب) علاقته بالدولة العثمانية:

شهدت الدولة العثمانية في عهد حمودة باشا ضعفا بالنظر للظروف التي عرفتها خلال القرن الثامن عشر، لذا . تبعية تونس للدولة العثمانية غلب عليها الصبغة الدينية، أي الإبقاء على الولاء للسلطة العثمانية.

كما أن خوف حمودة باشا من وقوعه بين إيالتين عثمانيتين الجزائر وطرابلس الغرب جعلته يبعث بهدايا كبيرة إلى للباب العالي بعد غزوه لطرابلس الغرب وبعد غضب السلطان العثماني من هذا التدخل ضد علي برغل في رأي العثمانيين[1].

.لم يغير حمودة باشا من سياسة التصلب وعدم الالتزام بالطاعة لأوامر السلطة العثمانية بل استمر فيها قدماً، إذ نجد مثلاً رفض الوساطة التي بعث السلطان العثماني بعد الحرب بين

[1]عمر علي بن اسماعيل ،انهيار حكم الاسرة القرمنلية في ليبيا (1795-1835)،ط1،مكتبة الفرجاني ، ليبيا ،1966. ،ص73

Scanné avec CamScanner

الجزائر وتونس ، ومن الأحداث التي تُبين القطيعة بين تونس والدولة العثمانية ما يُعرف بواقعة سحق جند الترك سنة 1811م، حيث رفع الجند الأتراك أعلام الدولة العثمانية داعين إلى سقوط تونس وبعدم الاعتراف بسلطة إلاّ سلطة السلطان العثماني، إذ أمر حمودة باشا بسحق جند الترك فتكسرت الأعلام التركية، فكانت هذه الأحداث تعبر عن رغبة حمودة باشا في الحد من سلطة العثمانيين، وأنّه يحكم البلاد بسلطة مستقلة وحكم مطلق تماماً.

ج) حرب طرابلس الغرب:

بدأ الخلاف بعد إلتحاق علي برغل بطرابلس الغرب وإعلانه الولاء للعثمانيين ومعاقبة القرمنليين، أحسّ حمودة باشا بالخطر المحدق بتونس بعد وصول علي برغل عرف الذي بحقده الشديد لحمودة باشا خاصةً بعد استضافة حمودة باشا للقرمنليين في قصره، كما كان علي برغل يرغب في احتلال بعض المدن التونسية كجربة وسوسة وصفاقس والحمامات[1].

وبدأ علي برغل في تنفيذ سياسته تجاه تونس عندما قام بأسر سفينة تونسية بداية 1794م ودعا الأتراك الذين في السفن للالتحاق به والعمل تحت راية العثمانيين، ثمّ توجه برغل في تنفيذ خطته التوسعية بالسيطرة على جزيرة جربة، عندما أحسّ حمودة باشا بالخطر القادم والتهديد الذي تشكله الإيالتين العثمانيتين(طرابلس الغرب والجزائر) واعتبر السيطرة على جربة تهديداً لسيادته وسلطته على البلاد(وكانت سياسة حمودة باشا واضحة تجاه علي برغل عندما رفض الاعتراف به وولائه(حمودة) للقرمنليين ورفضه(حمودة)

[1] الفونسو روسو ،المصدر السابق ،ص 231

Scanné avec CamScanner

للإمدادات والاعانات التي تحتاجها طرابلس الغرب من الحبوب، وكان حمودة قد عزم على رد الهجوم إعادة جزيرة جربة إلى صفه ولغزو طرابلس ذاتها وطرد واليها العثماني علي برغل.

فقد استطاع حمودة باشا استرجاع جزيرة جربة وبدأ في الدخول إلى طرابلس الغرب التي سيطر عليها بالطول والعرض، وحينئذ هرب علي برغل وأبحر مع رجاله نحو مصر، وبعدما أتمّ استرجاع البلاد أرجع القرمنليين إلى الحكم، وبهذا استطاع حمودة باشا تحقيق خطوات إيجابية متمثلة في إعادة وحفظ وتأكيد سيادته على البلاد ضد ثلاث قوى متسلطة وهي علي برغل والدولة العثمانية والجزائر في وقت واحد[1].

ومن عوامل التي أثرت على سياسة حمودة باشا ضعف الدولة العثمانية وتكالب الدول الأوربية على تقطيعها ، وكذا اتحاد الدول الأوروبية فيما بينها للقضاء على القرصنة التونسية(لقد وقفت تونس بحزم ضد كل الدول الأوربية الساعية لكسر القرصنة التونسية التي حافظت على هيبة وخزينة تونس) ،وقد كان حمودة باشا يرمي إلى فرض سلطته الخارجية بفضل نشاط القرصنة(مثلاً عند نهاية عهد ملك من ملوك أوربا بعيد حمودة باشا سن عقد جديد بحكم تغير الحكام)، وهناك من ربط قوة تونس في تلك المرحلة إلى كفاءة وحنكة حمودة باشا وإلى ثروة البلاد المتزايدة بسبب ازدهار الزراعة والتجارة والثروات.

. ويمكن الإشارة إلى عدم اتفاق الدول الأوربية على وضع حد للقرصنة التونسية، اضافة إلى الأوضاع التي عرفتها أوربا خلال الثورة الفرنسية لم تهتم بتونس في تلك الفترة.

---

[1] ابن أبي الضياف ،المصدر السابق ،ج3،ص ص22-31

Scanné avec CamScanner

ويعتبر حمودة باشا من أشهر بايات تونس (1782-1814) اعتمد على شخصيته القوية و العناصر المحلية في اعادة استقرار تونس ، فجند الجيش واهتم بالتجارة وتمكن من مواجهة أطماع الدول الاوربية خلال بداية القرن التاسع عشر ،كما أن البحرية التونسية عرفت انتعاشا كبيرا كان له الاثر الايجابي على حركة الجهاد البحري ، خاصة وأن مداخيل الايالة كانت بنسبة كبيرة من هذه الحركة الجهادية ، وقد كان القرن التاسع عشر مضطربا من الناحية السياسية والاقتصادية ، وأدى انفتاح الدولة على التجارة الاوربية واقتراض المال إلى رهن مصيرها ، وازداد التنافس حدة بين انجلترا وفرنسا على تونس خاصة بعد احتلال الجزائر

.

ملخص:

نخلص في نهاية هذا الدرس إلى أن مرحلة البايات الحسينين قد كانت من أبرز فترات الحكم في تونس خلال العهد العثماني بالنظر للتغيرات التي ميزت تونس خاصة من ناحية المجال المكاني وكذا للعلاقات التي ربطتها تونس خارجيا بفضل سياسة بايتها وخاصة حمودة باشا .

مصادرومراجع الدرس :

1. أحمد طويلي : في الحضارة العربية التونسية ، دراسات حضارية في العهد الحفصي والحسيني ، دار المعرف للطباعة والنشر ، تونس ،دت.

Scanné avec CamScanner

2. محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ماقبل التاريخ الى الاحتلال ، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة ، ط3، دارسراس للنشر، تونس ، 1993

3. أحمد بن أبي الضياف : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان ،ج3،الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1999

4. الباجي المسعودي: الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تق وتح وتع: محمد زينهم، محمد عزب، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، 2013م.

5. محمود مقديش :نزهة الانظار في عجائب التواريخ والاخبار ، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ،ط1،دار الغرب الاسلامي ،بيروت ، مج1988،2

6. كمال مايدي: علاقات تونس مع دول غرب أوروبا الغربية المتوسطية وتأثير البحرية في عهد حمودة باشا (1782-1814)، مذكرة الماجستير، تخصص: التاريخ الحديث، إشراف: عمار بن خروف، المركز الجامعي بغرداية، غرداية، 2012/2011

7. الفونسو روسو : الحوليات التونسية من الفتح العربي الى احتلال فرنسا للجزائر ،تحقيق محمد عبد الكريم الوافي ،منشورات جامعة قاريونس ،بنغازي ، ليبيا ، 1992

8. رشاد الامام: سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814(رسالة دكتوراة في الفلسفة) ،دائرة التاريخ في الجامعة الامريكية ،بيروت ،د س ت.

9. عمر علي بن اسماعيل :انهيار حكم الاسرة القرمنلية في ليبيا (1795-1835)،ط1،مكتبة الفرجاني ، ليبيا ،1966

الدرس العاشر: عهد الاصلاحات في تونس خلال القرن التاسع عشر

مقدمة:

Scanné avec CamScanner

تمثل مرحلة القرن التاسع عشر محطة تاريخية هامة في تاريخ تونس الحديثة ، بالنظر للتطورات التي عرفتها تونس أولا والايالات العثمانية الاخرى كالجزائر وطرابلس الغرب والمغرب الاقصى ، وهنا الاشارة إلى تغير موازين القوى في البحر الابيض المتوسط أين برز الاستعمار كظاهرة جديدة خاصة بعد احتلال الجزائر سنة 1830، مما انجر عنه تأثير كبير على الايالات العثمانية الاخرى ومنها تونس ، التي شهدت اصلاحات جذرية للخروج من المشاكل التي تخبطت فيه خاصة مع ازدياد النفوذ الخارجي الذي كان تأثير على توجيه القرارات .

اصلاحات أحمد باشا :

بعد وفاة الباي مصطفى سنة 1837 خلفه ابنه الباي أحمد باشا (1837-1855)الذي بدأ بإصلاحات الحديثة مثلما فعل محمد علي في مصر ، أعطى الاولوية للمجال العسكري وهذا لمواجهة الاخطار الخارجية والعمل قدما نحو التخلص من التبعية العثمانية ،فأنشأ مدارس حربية وأخرى مدنية ولعل أهم هذه المدراس الحربية مدرسة باردو سنة 1840، واقتنى السفن والمعدات الحربية ، واستقدم المستشارين العسكريين الفرنسيين والانجليز لتدريب الجيش [1]، وقد بدا أن الباي أنفق أموالا طائلة مقابل الاسلحة الفاسدة واستأمن المستشارين الاجانب على بلاده ودفعوا بها إلى الاقتراض ، وأدت سياسة اقتراض المال المشبوهة في عهد الوزير خزندار (1837-1873) إلى أزمة مالية حادة أثارت الاضطراب في البلاد [2]، اضافة اثقال كاهل

[1] ابن أبي الضياف ،المصدر السابق ،ج4،ص25

[2] De bisson,op cit,p111

Scanné avec CamScanner

السكان بالضرائب الباهضة والتي أثرت على الفلاحة والزراعة حيث اصبحت اخصب الاراضي الزراعية مجرد صحراء بعدما هجرها اصحابها نتيجة الضرائب المفروضة عليهم[1] .

اصلاحات محمد باي :

وبعد وفاة المشير أحمد باي استقدم الوزراء ورجال الدولة ابن عمه محمد باي (1855-1859)فبايعوه، وقد سار على العكس من سياسة سلفه إذ رأى يأن التخفيف من حدة الجباية والضرب على أيدي العمال هو الاصل الاصيل في سياسة الممالك شرعا وعقلا وطبعا لاسيما في هذه الايالة الضعيفة [2].

إلى جانب الاصلاحات الزراعية التي فرضها الباي محمد أصدر إصلاحا في الجانب السياسي عرف بالإصلاح الدستوري الذي صدر سنة 1857 أو مايعرف بوثيقة الامان الذي تضمن الحرية والمساواة بين جميع السكان على اختلاف دياناتهم وأجناسهم [3]،ويشير ابن أبي الضياف إلى أن من الاسباب التي أدت إلى صدور هذه الوثيقة مقتل اليهودي الذي سب مسلما في دينه والذي كان في حالة سكر فأمر الباي بقتله لأنه سب الدين الاسلامي [4]،فهذه الوثيقة وضعت لتنظيم العلاقة بين الراعي والرعية والتي اضطربت لأسباب وخلفيات متعددة .

فترة حكم محمد الصادق باي :

---

[1]ابن أبي الضياف ،المصدر السابق ،ج4،ص74

2 نفسه ،ص 127

3الشيباني بن بلغيث : الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (1859-1882)،تق، عبد الجليل التميمي ،منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، تونس ،1995،ص50

[4] ابن أبي الضياف ،المصدرالسابق ،ج4،ص ص 233-234.

Scanné avec CamScanner

وبعد وفاة الباي محمد خلفه اخوه محمد الصادق باي (1859-1882) الذي عرفت فيه تونس عدة تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية ، إذ اصدر الباي وثيقة إصلاحات جديدة سنة 1861 التي منحت امتيازات جديدة للاجانب خاصة الفرنسيين والايطاليين والتي سمحت بزيادة تغلغل الرأسمال الاجنبي للبلاد[1] ،اضافة إلى آثار ثورة علي بن غداهم خاصة وأن البلاد عاشت أوضاعا اجتماعية مزرية بعد هذه الثورة أين انتشرت المجاعات والاوبئة والامراض وسوء المعيشة[2] .

ثم أقدم الباي محمد الصادق على اعفاء مصطفى خزندار من مهامه سنة 1873 وعين مكانه خير الدين التونسي الذي ابتهجت البلاد بوصوله لرئاسة الوزارة وتوسمو فيه خيرا لما عرف عنه من صلاح وحكمة وحسن تدبير ،فشرع في تطبيق سياسته الاصلاحية في كل الجوانب خاصة منها الاقتصادية التي كانت يرى بأنها الجانب الاهم لاخراج البلاد من المشاكل التي تعيش فيها .

فأنشأ مجلس صحي لمراقبة الامراض الوبائية ، كما اعتنى بالفلاحة وسن عدة قوانين لخدمة الجانب الزراعي ، كما خفف من حدة الضرائب التي أثقلت كاهل السكان ونظم طرق تحصيلها[3] ،فعاشت تونس طيلة أربع سنوات في حالة استقرار وأمان نتيجة هذه السياسة ليطلب بعد ذلك خير الدين التونسي الاعفاء سنة 1877من مهامه نتيجة الدسائس والمؤامرات

1حسين علي حسين مصيرع :بداية التغلغل الاوربي في تونس وفق المخططات الاستعمارية ، مجلة كلية التربية الاساسية للعلوم التربوية والانسانية ،العدد25،بابل ، 2017،ص823.

2 عبد المجيد القصاب ، رحلة الى تونس عتبة السلام ، دط ،دت ،ص 203

3أحمد امين : موسوعة احمد امين الاسلامية زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، دار الكتاب العربي ،لبنان ، دس ،ص176.

Scanné avec CamScanner

التي طالته طيلة المرحلة التي قضاها على رأس الوزارة خاصة من مصطفى بن اسماعيل الذي كان مقربا جدا من الباي [1].

وبعد صدور وثيقة الامان سنة 1861التي تم بموجبها انشاء مجلس استشاري للشؤون الادارية يشترك فيه التونسيون والجالية الاجنبية ،كما أعطى عدة حقوق وامتيازات للاجانب ،مترتب عنه لجوء الاجانب نحو تونس وازداد نفوذهم وظغطهم على الادارة ،[2]وعلى الرغم من الامتيازات التي حصل عليها الاجانب الا انهم اعترضوا على ماجاء في الدستور خاصة مسألة وقوف رعاياهم أمام المحاكم ، هذا من جهة من جهة آخرى اتجه الوزير مصطفى خزندار إلى ساسة جديدة لمواجهة العجز الذي تعاني منه الميزانية وعدم قدرتها على ايفاء الديون الاجنبية ،ولمعالجة هذا المأزق المالي اتجه إلى سياسة فرض الضرائب التي كانت نتيجها قيام اضطرابات ،أدت سياسة زيادة الضرائب إلى ثورة السكان (ثورة بن غداهم 1864)[3] ،

وعلى اثر ذلك تفاقمت الأزمة المالية للبلاد التونسية منذ مطلع ستينات القرن التاسع عشر وتمثلت في تفوق المصاريف على المداخيل. فقد أصبحت المداخيل قاصرة عن الإيفاء بالتزامات الدولة تجاه دائنيها " وذلك أنه تعين من دخل المملكة قدر عظيم لفائدته (أي الدين) وأصله في كل سنة، لا يقبل التأخير عند حلول اجله، ومقداره أكثر من أربعة ملايين فرنك، وذلك أكثر من ثلث دخل المملكة بجميع أنواعه...لأن جميعها لا يصل إلى الخمسة عشر

---

1 شوقي عطا الله الجمل :المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا –تونس –الجزائر –المغرب)،ط1، المكتبة الانجلو مصرية ،القاهرة ، دت ،125.

2 صلاح العقاد :المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر ،الجزائر –تونس –المغرب ،ط6،مكتبة الانجلو مصرية ، مصر ،1993،ص167.

3ادريس رانسي ،القبائل الحدودية التونسية –الجزائرية بين الاجارة والاغارة ،الدار المتوسطية للنشر ،2016،168.

Scanné avec CamScanner

مليونا ريالات تونس..."[1]. كما أصبحت عاجزة عن الاستجابة لمصاريف الباي وأسرته وسائر أعوان الدولة على اختلاف رتبهم" لأن مرتب الملك وحده مليون ومائتا ألف، ومرتب آله أكثر من مليون، ومرتب الوزراء والرؤساء وأعضاء المجالس والكتاب والعمال والجند وغيرهم من ذوي الألقاب ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف.... وغالب هذه المرتبات تدفع منجمة على الأشهر..."[2]. وكان الحل المتاح هو واحد من أمرين: الضغط على مصاريف الدولة أو الزيادة في مداخيلها. غير أن الحل الثاني – على قلة وجاهته ومنافاته لواقع الأمور- هو الذي كان الأكثر حضورا في المجالس التي خصصها الباي للنظر في المسألة، ولم ينصت الباي للحجج التي قدمها أمير الامراء حسين رئيس المجلس البلدي بالحاضرة الذي خاطبه بالقول، " يا سيدي ، إن هذه المملكة لا قدرة لها على احتمال شيء زائد ، وهي من الموجود في خطر، فحالها كحال البقرة إذا حلب ضرعها حتى خرج الدم، فهي الآن ينزو ضرعها بالدم، وولدها بمضيعة والعطب أقرب إليها من السلامة" [3] وغيره ممن ذهب مذهبه من خاصة أعضاء المجلس مثل خير الدين باشا ، بل أنصت إلى دعاة الزيادة في الدخل عبر الترفيع في الضرائب واستحسن رأيهم و " دعا بتكثير أمثالهم في الأعيان"[4]. وكان الرأي النهائي لحل معضلة الميزانية هو " ...أن مال الإعانة يزاد عليه مثله ويكون عاما في سائر بلدان المملكة من غير استثناء ولا اعتبار لحال الدافع"[5] ويعلق ابن أبي الضياف على القرار بقوله:..."وسيقت المدن التي استثناها منشور الإعانة مساق عربان

1ابن أبي الضياف ، المصدر السابق ، ج 5، ص 127

2 نفسه ص ص 127-128

3ابن أبي الضياف ،المصدر السابق، ج5،ص 129.

4 نفسه ص 130.

5ابن أبي الضياف ،المصدر السابق، ج5، ص 130

Scanné avec CamScanner

البوادي" [1] ويبدو أن ذلك ما ساءه في الأمر كله، إذ كيف يستوي سكان هذه المدن والعربان؟؟؟ وفي جمادى الثانية من سنة 1280 للهجرة (نوفمبر- ديسمبر 1863)، أصدر الباي المنشور المنظم لأداء الإعانة و وجهه إلى العمال "... وبعد،...اقتضت المصلحة الآن أن تكون الإعانة إثنين وسبعين ريالا في العام، يدفعها كل نفر من الأنفار المقيدة أسماؤهم بدفتر عملكم. فالعمل أن تعلموا من لنظركم بذلك وتحرضوهم على المناجزة في الخلاص وتجتهدوا في ذلك. ومن يخلص في إعانته يأخذ حجة الخلاص في ذلك لتكون بيده دليلا على خلاصه ومبدأ ذلك من عام ثمانين عجمي (الصواب: هجري). وتحذروا جميع أهل عملكم من التراخي. والله ولي إعانتكم والسلام". [2] وهكذا جمع هذا القرار بين أمرين: تعميم توظيف ضريبة "الإعانة" على كافة سكان البلاد وتضعيف قيمتها وبذلك توسعت دائرة المتضررين من هذا القرار.

لقد مثلت انتفاضة القبائل في ربيع 1864 رفضا لنظام سياسي واقتصادي واجتماعي جائر- بالرغم من عدم استهدافها للباي في شخصه وفي رمزيته - سمته الأساسية هي إقصاء الأهالي من المشاركة في إدارة الشأن العام وحرمانهم من الاستفادة من الثروة مقابل استئثار المماليك وأتباعهم بامتياز السلطة والثروة. وهي لهذا السبب بالذات مطالبة صريحة بالشراكة الحقيقية في الوطن، شراكة من شأنها أن تتيح إنهاء المظالم من جهة والاستفادة من الثروة من جهة ثانية وكان ذلك هو جوهر شعارها الأساسي: " لا للمماليك، لا للمجبى ولا للدستور ."

ونخلص إلى القول إلى أن انتفاضة في 1864 كانت فاشلة بكل المقاييس وانتهت إلى الاضمحلال سنة 1866 بسبب ضعف القدرات التنظيمية وبفعل التآمر عليها من قبل

1نفسه ص131
2انفسه ص 132.

Scanné avec CamScanner

المماليك الحاكمين الفعليين للبلاد آنذاك الذين اعتمدوا الترغيب كالتراجع عن مضاعفة المجبى ووعد الثائرين بالعفو والتلويح بإغراءات مادية للبعض منهم، والترهيب عبر استثمار الخلافات التقليدية بين بعض القبائل والتناقضات بين أعيانها، وبسبب المخاطر التي مثلها التدخل الأجنبي على مصير البلاد. وأفضت إلى القمع الرهيب ضد الثائرين الذين انتشر بينهم الخذلان بفعل مناورات الباي ومماليكه وانتهى علي بن غذاهم أسيرا في كراكة حلق الوادي وهناك قضى نحبه مسموما وفرضت على الثائرين غرامات مالية ثقيلة أنهكت اقتصاد البلاد وأدت إلى إعلان إفلاس الدولة التونسية وتركيز الكومسيون المالي الأجنبي سنة 1869 للإشراف على المالية التونسية كمقدمة للإستعمار الفرنسي سنة 1881.

ملخص :

نلخص في نهاية هذا الدرس إلى أن البايات الحسينيين قد فشلو في ايجاد حلول جادة للخروج من المشاكل التي عانت منها تونس خلال النصف الثاني من القرن التاسع ، في وقت ازداد فيه

Scanné avec CamScanner

نفوذ الاجانب الذين استغلوا الاضطرابات والقلاقل التي عانت منها البلاد لفرضوا سلطانهم على البلاد ومهدوا بذلك لفرض الحماية على تونس سنة 1881.

مصادرومراجع الدرس :

1. **الشيباني بن بلغيث : الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (1859-1882)،تق، عبد الجليل التميمي ،منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، تونس ،1995.**
2. **أحمد بن أبي الضياف ، اتحاف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان ،ج5،الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1999**
3. **حسين علي حسين مصيرع :بداية التغلغل الاوربي في تونس وفق المخططات الاستعمارية ، مجلة كلية التربية الاساسية للعلوم التربوية والانسانية ،العدد25،بابل ، 2017.**
4. **عبد المجيد القصاب ، رحلة الى تونس عتبة السلام ، دط ،دت**
5. **أحمد أمين : موسوعة أحمد أمين الاسلامية زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، دار الكتاب العربي ،لبنان ، دس.**
6. **شوقي عطا الله الجمل :المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا –تونس –الجزائر– المغرب) ط1، المكتبة الانجلو مصرية ،القاهرة ، دت.**
7. **صلاح العقاد :المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر ،الجزائر–تونس –المغرب ،ط6،مكتبة الانجلو مصرية ، مصر ،1993.**
8. **ادريس رائسي ،القبائل الحدودية التونسية –الجزائرية بين الاجارة والاغارة ،الدار المتوسطية للنشر ،2016.**

<u>المصادر والمراجع (المعربة والغير معربة):</u>

Scanné avec CamScanner

* السراج: محمد بن محمد الاندلسي(ت 1149هـ/1736م)، الحلل السندسية في أخبار التونسية، ط1، تقديم وتحقيق محمد لحبيب الميلة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970.

* الزركشي (أبو عبدالله محمد بن إبراهيم ت 925هـ/1519م)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.

* ابن خلدون،(أبوزيد عبد الرحمان ت808هـ/1405م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، ضبط ومراجعة: خليل شحادة، سهيل زكار، ج6، ط2، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ، 2000م.

* ابن قنفذ(أبو العباس احمد القسنطيني ت 810هـ/1407م)، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق: محمد الشاذلي، النيفر التركي، الدار التونسية للنشر، 1998م.

* التجاني (أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد ت 721هـ/1321م)، رحلة التجاني، تحقيق: حسن حسين عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس، 1958.

Scanné avec CamScanner